أحمد زغب
ليلة هروب فجرة
رواية

أحمد زغب

ليلة هروب فجرة

رواية

أحمد زغب

ليلة هروب فجرة

رواية

سامي للطباعة و النشر والتوزيع

ولاية الوادي ـ الجزائر

032 14 93 39

0557 97 44 43

imp.alwady@gmail.com

الإيداع القانوني:

السداسي الأول 2017

ردمـك :

978-9931-650-11-9

تصميم الغلاف:

كمال خزان

جميع الحقوق محفوظة ©

((الحب تاريخ المرأة وليس حدثا عابرا في تاريخ الرجل))

مادام دي ستايل.

((الحب جزء من وجود الرجل لكنه وجود المرأة بأكمله))

اللورد بيرون

((الرجل من صنع المرأة

فإذا أردتم رجالا عظاما أفاضل فعلموا المرأة عظمة النفس والفضيلة))

جان جاك روسو.

- ١ -

الخيام متباعدة، والحواجير أمامها متماسكة إلى درجة أنها أصبحت تشبه الجدران،الأمر الذي يشير إلى أن القوم أطالوا المكث في منطقة "باغام" الرملية التي يكثر فيها العشب وبها آبار قريبة وبعيدة، مياهها غزيرة.

قبيلة أولاد حامد تقيم في هذا الربع منذ أكثر من سنة، هؤلاء بدو لا همّ لهم إلا مواشيهم. والقرية قريبة من هنا حيث يحصلون على شيء من يابس تمور السنة المنصرمة، قرية النخلة على بعد ستة كيلومترات والخبنة أكثر من ذلك بقليل، هاتان القريتان زراعيتان تحيط بهما غيطان النخيل من كل ناحية، ومعظم قاطنيهما من ملاك النخيل.. أما في هذا الربع، فالشيوخ والشبان لا عمل لهم، فهم يتظللون بشجرة الطرفاء الوارفة الظلال في هذا الخريف ذي النسيم المنعش.

لا شك أنهم ينظرون إلى جيرانهم من أهل الحواضر بشعور فيه شيء من الحسد على غلة التمور المتوافرة لديهم، والخضر وأشياء كثيرة، لا يملكها البدو، غير أنهم غير مستعدين للعمل المضني في الزراعة، إنما يمكثون طيلة الربيع مع أغنامهم وهي تسعى بنفسها لطلب رزقها. أما هؤلاء الرعاة فهم يعزفون على الناي أو على الزرنة أو يغنون أو ينشدون الشعر، أو يتصارعون فيما بينهم لاختبار القوة البدنية.

وفي القرية المجاورة (الخبنة). يستريح الناس من عناء الخريف بعد أن جنوا غلتهم ووضعوها في صناديق واستأمنوا عليها الحاج الحفناوي تاجر التمور الذي يسوّق منتجاتهم ومنتجات القرى المجاورة في سوف إلى المدينة وربما إلى التل.

الرجال نادرا ما يستريحون في العصر للعب الخربقة والحديث عن حاجتهم لشيء من الترفيه قليلا، كأن يتسامعوا عن عرس في أحد الأحياء المجاورة. أما الشبان فلهم شان آخر، فما أن يعودوا من المزارع والغيطان حتى يتحلقوا للعبة

الخربقة التي يستعرضون فيها ذكاء وتخطيطا واستراتيجية تتفاوت من شاب إلى آخر، وقد يناصر مجموعة من الشباب أحد اللاعبين فيكثر الهرج والمرج حتى ينزعج الشيوخ من هناك.

-أش كلبك مات !!!!

تمرّ باكي الطفلة ذات الاثني عشر ربيعا قريبا منهم بسرعة المحتشمة فقد بدأت مظاهر الأنوثة تبدو على صدرها الغض.

- كلبك؟؟؟

هذا أحد الكلاب الثلاثة، سمعت أيضا أنّ في الخربقة ديارا، والكلب إذن تنقل من دار إلى دار. تلك هي حجّاية خالتي زينة، في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، نمت قبل أن أعرف حلّها.. ولحد الآن وقد مضى على تلك الليلة سبعة شهور كاملة. ها أنا اعرف الكلب الثاني. ولم يبق لي إلا الكلب الثالث.

باكي تستطيع أن تسال عمتها في حل اللغز، فتجيبها على الفور، لكنها تفضل أن تتعرف عليه بنفسها ولو بعد سبعة شهور، هاهي تعرف ثلثي اللغز، لم يبق إلا الكلب الثالث التي يتحرك فيشعل النار.

- ثلاثة كلاب واحد ينبح ليل نهار، و واحد يتحرك فيشعل النار، والآخر يتنقل من دار إلى دار.

لعب الخربقة لا يحدث كثيرا في قرية الخبنة، فالقوم يعملون إلى ساعة متأخرة من النهار ثم يعودون إلى البيوت والأخبية والخيام مرهقين يتناولون لقمة ثم يستريحون من العناء إلى صباح الغد.

باكي تسرع إلى البيت تساعد أمها وتنتظر قدوم والدها الحفناوي من المدينة لعله لا ينسى هذه المرة أن يشتري لها الِحْرَام (ينطقونها بترقيق الراء) الذي طلبته بمناسبة العيد الكبير الذي هو على الأبواب. وهي في الحقيقة تحب أن يكون الحرام أسود اللون لتستعمله في الأعراس، فعندما رقصت النخ بفستان ضحكت عليها البنات الأكبر منها سنا وقلن لها:

-مازال بكري يا باكي... انتظري أن تكبري قليلا .. أو أن شعرك الطويل أغرك فأحببت أن تستعرضيه أمام شباب القرية..

الحاج الحفناوي يملك دكّانا في وسط سوق المدينة لبيع القماش للخياطين وتجار التقسيط، لكنه في أيام الخريف هذه لا يتّسع وقته إلى غير سوق التمور ،يبيع بالجملة إلى تجار الشمال والمصدّرين إلى الخارج بكميات كبيرة، لذلك فهو يستعين بابنه عامر وببعض شباب القرية. لكنه هذه المرّة تذكّر ابنته باكي. الفرح يغمر باكي هذه المرة.

باكي...باكي ..

تناديها أمها سودة، تنطق الباء مفخّمة ومشددة وهو على أي حال اختصار لاسمها مباركة الذي يقع عليه اختصاران الأول حين تتحول إلى باكّه بتشديد الكاف، والثاني تختصر باكّه إلى بّاكي.

تترك بّاكي لعبة التيتان مع رفيقاتها وتهب مسرعة إلى أمّها خاصة وهي تعلم أن أباها عاد لتوه من سوق المدينة. وهو يتأهب للذهاب إلى الجامع.

تتمختر باكي بالحرام بعد أن أصرَّت على قياسه، ولبس الحرام ليس كالفستان فهو يتطلب خبرة ، والبنت لا تستطيع أن تلبسه بمفردها لأول مرّة إلا أن تساعدها امرأة كبيرة على لبسه، ويفضل أن تكون عجوزا مسنة...حتى يتفاءلوا لها أن تبلغ سنها وهو نوع من السحر الإيجابي القائم على التشاكل..

أسرعت باكي إلى خالتي زينة أولا لتطلب منها مساعدتها على لبس لحرام، وثانيا لتقول لها إنها اكتشفت الكلب الثاني حين سمعت الشبان يلعبون الخربقة ويقولون:

- أش...كلبك مات.

أسدلت شعرها الطويل الناعم، وهي عازمة على تجريب "النخ" بالحرام، الفتيات قريناتها يحسدنها على شعرها الطويل الفاحم والناعم، ولا شك سيحسدنها أكثر على الحرام أما لو استطاعت أن تتقن "النخ" فستوغر

صدورهن. وهنّ لا شك لن يستسلمن للأمر الواقع ويحبكن حولها الكثير من الكلام الذي يتخلله الهمز واللمز.

من هذا اللمز عزمها على الذهاب إلى العرس والتفرج على الشبان الذي يطلقون البارود ويلعبون بحركات فانطازيا. لكن الشاب الذي يقلن أنها معجبة برقصاته وحركاته لم يكن من القبيلة إنما من النجع البدوي، نجع أولاد حامد. شاب مجهول لم يعرف له اسم، صاحب القنار المائل...هذا هو الاسم المؤقت لذلك الشاب المجهول الذي بهر الفتيات بقدراته العجيبة. القنار هو العمامة الأنيقة لكنه يميلها إلى جهة اليسار..

يمسك "القارابيلا": آلة إطلاق البارود، بيد واحدة. ويضع مقدمتها على القنار ويقوم بحركات رشيقة تسحر قلوب الفتيات اللاتي جئن خصيصا لرؤية المناظر الرجولية التي تشير إلى الفحولة التي تدغدغ أحلامهن الوردية.

طلبت من خالتي زينة أن تدقّ على القصعة وتترنم بالرداسي حتى تجرب النخ بالحرام وهي تقدم لها التوجيهات كيف يكون النخ على أصوله:

في الدَّارْ بْعِيدْ ... حَبِيبْ جَانِي... فِي الدَّارْ بْعِيدْ... حْبِيبْ جَانِي... فِي الدَّارْ بْعِيدْ... دُونُو جُوبَهْ وُمْهَامِيدْ ...حْبِيبْ جَانِي ..كل ذلك والخالة تضرب على قعر القصعة : طب ..ططب . طب. ططب . طب. ططب. طب . ططب. طب. ططب ....ثم تتوقف عن الغناء بحجة أنها لا تحفظ كلمات الأغنية.

- باللّه عليك يا خالتي زينة هل أتقنت النخ..؟

- أكيد وسوف تتقنينه أكثر حين يستوي قوامك ويتدوّر صدرك أكثر وتلبسين الخلال الفضّي.. ولاشك أن الشبان سيستلون سيوفهم من أغمادها بسببك....ها ها ها ها ..

فجأة ، وجم الجميع وتوقفت الحركة والهرج واختبأت باكي وراء خالتي زينة من فرط الخجل...إنه الحاج الحفناوي..

- ما هذا..؟؟

- لاشيء يا حاج.... باكي تقيس الحرام الجديد..

هكذا أجابت خالتي زينة في ارتباك شديد...

- هيا انزعي عنك هذا، ضعي العشب للحمار، وغيري الماء للماعز..وراقبي المذود إن بدأ ينفد من الحشف أضيفي إليه قرابة الملء...هيا اسرعي...تحرّكي..

هكذا تكلم الحفناوي بصرامته المعهودة ثم انصرف خارجا من الصاباط الظهراوي حيث كانت خالتي زينة تساعد باكي في لبس الحرام..وتعلمها رقصة النخ على إيقاع الرداسي.

خرجت باكي مسرعة من الصاباط لتنزع عنها الحرام وتخفيه في صندوق أمها وهي تقول في نفسها:

- آه متى يكون أول عرس في القرية؟؟؟

******* ****** ****

- II-

اصعدي يا عقرب الرأس!! إن وجدت حيث تصعدين...ليس هناك فقر أكثر مما هو فيه وقومه، وليس من شأنه أن يفكر في تغيير هذا الواقع.. فلا أقل من أن يغتنم فسحة للتعبير عن نفسه ، واستعراض قوته العضلية أمام رفاقه...لقد باع كل ما جلبه من البادية البعيدة..من وبر

وصوف وسمن و أقط..ادّخر لنفسه بعض المال وسلّم البقية لوالده.. ولم ينس أن يجلب من السوق كيسا من القمح حمله على ظهر الحصان من سوق المدينة إلى غاية بادية ((باغام)) أين تقيم قبيلة أولاد حامد منذ ما ينيف عن سنة ونصف.

اشترى البدلة الأنيقة: العمامة، السروال الأسود القاتم والمزدان بخيوط بيضاء على الجانبين..والسترة البيضاء..كل من لاحظ لبسه للعمامة حاول تنبيهه: العمامة أنيقة لكنها مائلة قليلا إلى اليسار، فلو عدّلتها قليلا لكان أحسن...لكنه مصرّ أن يميلها..ولا يعدّلها كما يرتضي أقرانه من الشباب وحتى الشيوخ الذين استحسنوا طريقة لف العمامة حول رأسه بهذه الأناقة.

وللشاب عايش في ذلك ما يشبه الفلسفة:

- لا أريد أن أكون نسخة من الآخرين...لا بد أن أتميّز ولو بالاعوجاج!!!!!

الشبان يقيمون صفّا.. ويمسكون آلة إطلاق البارود..يقومون بحركات منسقة ومنسجمة مع الإيقاع ثم يطلقون النار..الآلة المسماة ((قرابيلة)) لعلها تحريف لكلمة carabine. ((القرابيلة)) تحدث ارتدادا عنيفا عند إطلاق البارود، فوجب على من يمسكها أن يكون قويا ويمسك بكل قوته حتى لا تنفلت من يديه ...لكن عايش بادر إلى فكرة جديدة، وهي أن يمسكوا القرابيلة بيد واحدة..حاول الشبان أن يفعلوا ...لكن بعضهم أحجم في آخر لحظة، والبعض الآخر..أفلتت من يده وكادت أن تصيب من كان إلى جانبه بحروق أو جروح...أما عايش ..''صاحب

القنار المايل" فقد تميّز عن جميع أقرانه بقدرته على إمساك القرابيلة بيد واحدة وإطلاق البارود دون أن ترتجّ يده..

لا حظ الوالد عمارة في ابنه- منذ صغره- هذه المواهب التي لا تقتصر على القوة البدنية ،والجرأة، بل تتجاوزها إلى حدّة الذكاء وقوة الذاكرة..لذلك توسّم فيه خيرا فأرسله إلى قرية الخبنة حيث كُتاب الشيخ الحسين، ليحفظ جزءا من القرآن الكريم، لكن القوم حان رحيلهم إلى البادية البعيدة حين أمطرت السماء أمطارا غزيرة ذات خريف.وهكذا ترك حفظ القرآن في كتاب الشيخ الحسين ،ورحلت قبيلة أولاد حامد ، لتغيب سنوات عن مقر نزولها وتعود إلى ((باغام)) بعد أن اشتد عود الشاب عايش. ولم تعد ستّه تسمح له بتحمّل فلقة الشيخ حسين، وسخرية أطفال القرية من أسماله البالية.

لكنه ظل يحتفظ للكتاب بكثير من الذكريات المثيرة حينا والمؤثرة أحيانا أخرى.

انتهى الاستعراض ، وحان موعد عودة الرجال من المراتع القريبة، وكان على الشبان أن يبادروا إلى مساعدتهم على جلب المياه ، لسقاية اللغو وصغار الخرفان ، ومساعدة النساء على جمع الحطب..وأخيرا جلسوا ينتظرون عمي رابح الذي كان شاعرا ويحسن إنشاد الشعر الغزير الذي يحفظه لغيره من الشعراء، والشبان يطلبون منه أن يعيد إنشاد القصائد نفسها بصوته النديّ الذي لا يخلو من عذوبة.

أَضْوَى مِنْ لَفْجَارْ خَدِّكْ يَافَجْرَةْ أَضْوَى مِنْ لَفْجَارْ خَدِّكْ يَا فَجْرَة

أَضْوَى مِنْ لَفْجَارْ خَدِّكْ يَافَجْرَةْ عْيُونِكْ جَدْيِ الرّيمْ فِي سْطُوحْ المَجْرَى..

يتساءل عايش لماذا لم يجد صعوبة في حفظ هذه الأغنية ، بينما وجد صعوبة كبيرة في حفظ سورة:

القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة.....

ربما كونها أغنية.. صوت عمي رابح الندي يساعد على الحفظ...عمي رابح له ذاكرة قوية..يحفظ كل ما قاله البدو من شعر وقصص وأخبار ، منذ أقدم الأزمان لكنه لا يحفظ سورة الفاتحة..ومع ذلك فهو مصرٌّ على أن يصلي بها بروايته الخاصّة التي تثير ضحك الشبان.

عمي رابح لا يستنكف أن يروي للشبان حكايات الحب والغرام، تلك الحكايات التي يحبُّها الشبان حبًّا جَمًّا، ويحبّون عمي رابح ويتسارعون إلى السهر عند خيمته ليلا..بل لا يستنكف من رواية مغامراته العاطفية..مع فجرة ، وحدي ، وعيشة، وغيرهنّ من الفتيات حين كان شابا، ينتظر الناس دخوله إلى حفلات أعراس البادية..ليرفع عقيرته ويعبّر عن عواطفه المشبوبة.

يغالبهم النوم عند خيمته، فينامون، لا يحتاجون لا إلى الفراش، فالرمل الناعم النقي أحسن فراش، ولا إلى الغطاء فالسماء المزينة بالنجوم أجمل غطاء. يستيقظون في الصباح الباكر فيبادرون إلى مراعيهم البعيدة حينا والقريبة أحيانا. لا يشغلهم شيء من هموم الدنيا إلا التغنّي بالأشعار وانتظار الأعراس التي تقوم في أواخر فصل الخريف سواء في نجع أولاد حامد أو في قرية الخبنة أو النخلة أو غيرهما من القرى المجاورة.

بدأ الاستعداد للعرس في القرية المجاورة، أهل القرية لا يحسنون اللعب بالبندقية ولا يحسنون رقصة الزقايري مثلما يحسنها شبان البادية، ولعل السبب انشغالهم بقراءة القرآن في الكتاب والعمل في واحات النخيل.أما شباب البادية فالفراغ يملأ حياتهم البسيطة لذلك يملؤونه بالشعر والرقص ورواية الحكايات والأخبار الطريفة واستعراض العضلات....الخ.

أهل العرس أخبروهم قبل موعد العرس بسبعة أيام كاملة،دعوهم إلى العشاء، هم وشيوخهم ليلة الثلاثاء والأربعاء والخميس ليالي متوالية للغناء وإنشاد الشعر ليلا للكبار، وللعزف على الزرنة ولعب رقصة الزقايري وإطلاق البارود نهارا للشاب عايش وأقرانه. يبدو أن أهل العرس من ميسوري الحال ، لذا فهم ينتظرون أن تكون الحفلات ساخنة، يحضرها الناس من كل القرى

المجاورة، بل أحيانا بعض الروامى لتصوير لقطات الفنطازيا. والحاضرون لا يحضرون لمجرد التهنئة وتناول الطعام الدسم كما هو الحال في المدن، إنما للفرجة والمساهمة كلٌّ بما يستطيع في إحماء العرس، ليثبتوا لأهل العرس أنهم معنيّون بالأمر، وأنهم من الأقارب على رأي الشاعر:

العِرِسْ يِبْغِي الدُّوِيلَة وَالْخِيلْ تِبْغِي الْمِشَالِي
وَالّلي خَرَجْ مِ الْقَبِيلَة يَرْخَصْ إِذَا كَانْ غَالِي.

وقول الاخر: الْعِرِسْ مَا يِحْمُوهْ كَانْ أَقْرَابَهْ نَهَارْ جِحِفْتَهْ وَالاَّ نَهَارْ اسْخَابَهْ

بدأ الاستعداد ، في صفوف شبان نجع أولاد حامد، لليوم المشهود ، حين يبرز كل شاب قوته وفحولته وأناقته وحركاته الرشيقة في إمساك " القارابيلا"، وإطلاق البارود. كلّ يحاول لفت انتباه الفتيات، والتفوق على أقرانه في تلك الحركات.

انهمك الشبان في تنظيف آلاتهم ، وتحضير كميات كبيرة من البارود ذي الجودة العالية، فكلما كان جافًّا، وكمية الكبريت فيه عالية كلما كان يستجيب للشرارة بسرعة خاطفة، أحضر عايش كمية من البارود ما يكفي لعدة حفلات وإطلاق عشرات (الوجوه) ووجه الكنترة أو البارود هو الطلقة، وكل طلقة تطلب قدرَ كاسٍ من البارود قد يزيد قليلا أو ينقص قليلا حسب شجاعة الشاب الذي يمسك "بالقارابيلا " ويدوس على الزناد.

ليس من السهل أن يحضروا الزرنة ليتدربوا على لعب رقصة الزقايري فصوتها يجلب الناس من بعيد ظنا منهم أنها حفلة عرس حقيقية وليس مجرد تدريب؛ لذلك طلبوا من عمي رابح أن يعزف لحن الزقايري بالقصبة ومن أحد الكبار أن يضرب على الفرح وهو الطبل المغلق المستعمل عادة للتوقيع على الرداسي ورقصة النخ.

عزف عمّي رابح الزقايري ورقص الشبان حتى أنهكهم التعب، ثم بدأ النقاش، كل يحاول أن يقدّم ملاحظات لرفيقه ،حتى تكون حركته أكثر رشاقة ،

وكلّهم مجمع على "القنار" المائل للشاب عايش، لكن عايش مصر على إمالة هذا "القنار".

انتقل الحديث من الرقصات و"قنار" عايش إلى الشعر، والمغامرات العاطفية التي عاشها عمّي رابح، حين كان شابا راعيا في غنم وإبل والده ، لقد اضطر أن يتسلل إلى نجع قبيلة أولاد صابر ويخطف الفتاة عيشة التي بادلته الشال بالعمامة أثناء حفلة الدراسي والنخ. ولم يكن الصابرية يسمحون لشاب بدوي من خارج مرابع القبيلة أن يتزوج من عيشة لذلك قام بالمغامرة التي كانت ستكلفه حياته لو انتبه إليه فرسان القبيلة.

ثم ينشد القصيدة المخلدة لتلك الحادثة البطولية في حياة عمّي رابح والمبرّرة لهذا العمل الذي يهتك الأعراف الاجتماعية:

لاَ صُبُتْ عَابِرْ وْطَرْبَانْ والسِّرج صغلان وُالْبُنْدْقَة بْخُرُجْ مَلْيَانْ نُوصِلْ مْكَحِّل أَهْدَابَهْ
مُولَى الْعَثِيثْ طَاحْ قُضْبَانْ عَ الصَّدَرْ بِدْكَانْ وعيون دقرات طليان في يدين جابر صوابه
وُخْدُودْ كِيفْ بَرَقْ فَ أَمْزَانْ لَرْشَافْ مُرْجَانْ وَالصَّدَرْ بِزْوِيزْ مِزْيَانْ تُفَّاحْ رَاوِي شَرَابَهْ
كِيفْ دَهْلَسْ الّليلْ وُدْكَانْ نُسْقُطْ كِمَا جَانْ عَ الْبِيتْ بْوَقْدْ عَصْرَانْ حَافِلْ مْعَرْجِنْ أَسْخَابَهْ.

لكنه انتهى إلى شيوخ القبيلة وقبَّل رؤوسهم طالبا الصفح، وهو يحمل كفنه بين يديه، غير أنه يدرك في قرارة نفسه أن هذه الحركات مجرد بروتوكولات نتيجتها في نهاية المطاف هي الغاية المرغوبة وهي الليلة السعيدة. أما كل اللقطات أو الطقوس الشعائرية من تقبيل الأيادي والرؤوس فالقصد منها استرضاء الإله المزيّف الذي يتمثل في أعراف المجتمع.

- III -

كتاب القرية مكتظ بالتلاميذ، وأصوات مختلطة في أسوأ معاني الفوضى الصوتية، حذار أن تقول أمام كبار السّنّ ما هذه الفوضى؟؟ فهم يتبركون بها، وبعض الشيوخ يقترب من الكتاب للاستماع لهذه التي نقول عنها فوضى وهم يرونها شيئا آخر.

لا تنظيم من أيّ نوع لا في طريقة جلوس الأطفال ولا في تراتبهم العمري فشاب في الثامنة عشرة بالقرب من طفل في الخامسة أو السادسة.

الطالب الحسين يراقب هذه الفوضى بعصاه الطويلة، كما يستمع إلى كل التلاميذ في آن معا يصحّح لهذا، ويحث ذاك على القراءة بصوت مسموع، وينهى الآخر عن الحديث إلى زميله..

أحيانا يشرف على استعراض التلاميذ لألواحهم أو محو الألواح القديمة وكتابة الجديدة. غير أن فترات العمل الجادّ تتخللها فترات للطالب حسين ليكتب بعض التعويذات لمن يطلبها من النساء اللائي يعتقدن في قدرتها على شفاء أطفالهن من الحمّى أو من الحسد أو الأرواح الشريرة التي ربما تنتابهم ليلا فتحول دون نومهم نوما هادئا. مقابل حبّات من البيض يقدمنها هدية أو زوج من أفراخ الحمام أو أي شيء آخر...وربما تفرّغ الطالب لتقليم غرسات نخيل في باحة المسجد قريبا من الكتاب أو المدرسة القرآنية.

وخلال فترة الإهمال هذه يدخل التلاميذ فيما بينهم يتحدثون عن كل شيء تقريبا، إلا عن القرآن والطالب وعصاه الغليظة. الشاب عامر ابن الحاج الحفناوي يمرّ أمام الكتاب ويسلم على ((نعم سيدي)) وهو اللفظ المتداول بين التلاميذ للدلالة على الطالب معلم القرآن.

- صباح الخير ((نعم سيدي))!!

- صباح الخير سي عامر كيف حال الحاج الحفناوي.؟
- بخير يسلم عليك.
- صحيح أنكم بدأتم بالتحضير للزواج؟
- ربما أواخر هذا الخريف..ولكن إذا كنت بحاجة إلى خدمة هذه الفسائل فيمكن أن نساعدك على ذلك لا داعي لأن تتعب نفسك.
- التقليم بسيط وقد أوشكت على إنهائه لكن "الحشانات" بحاجة إلى علفة وهو ما يتطلب عملا شاقا يتطلب جهدا ووقتا.
- سأحضر معي أحد العمال وغرارة من الجلّة ونعمل على علف الفسائل صباح الغد أو بعد غد، هذا بيت اللّه وأي عمل فيه محمود من اللّه والناس.
- بارك اللّه فيك يا عامر. اللّه يبارك ...لقد صرت رجلا..الحق مع والدك ..سنفرح بك بعد أسابيع قليلة..بارك اللّه فيك.

فكر الشاب عامر في الأيام التي عاشها يدرس في الكتاب دون أن يتمكن من حفظ القرآن، والفلقات الكثيرة التي وقّعها الطالب الحسين على قدميه الصغيرتين..كان يقول له حين يهم بشدّ رجليه بالفلقة: أنت لا تقرأ، تشغل وقتك بالاستماع إلى حديث التلاميذ الأكبر منك سنّا، تظن أنهم يملكون أخبارا ومعلومات عن السوق والبادية والناس والنخيل والنساء والفتيات وكل شيء، وهم لا يعرفون إلا الكذب. وحين كان يريد أن يضربه يكلف عمّار قدور - وهو شاب كبير، من هؤلاء، يقال إنه وصل سورة البقرة وهي أعلى سورة أو اكبر سورة - يمسك عمار الفلقة بينما يضرب الطالب الحسين رجلي الطفل بالعصا.

كان الحاج الحفناوي يجزل العطاء للطالب الحسين، حتى يعتني عناية خاصة بالطفل عامر..والعناية الخاصة من وجهة نظر(نعم سيدي) هي الشدّ بالفلقة والضرب بالعصا على القدمين..

ها هو ذا سيصبح رجلا متزوجا، وهو لا يـزال يحمـل الـذكريات المخجلـة عـن الكتاب ونعم سيدي وعمار قدور الذي توفي بعد أن ترك القرية وذهب يبحـث لـه عن عمل في حاسي مسعود موطن الثروة والنفط.

اكتشف عمار قدور اكتشافا رهيبا وأخبر عنـه التلاميـذ الأقـل منـه سـنا، لكـن هـؤلاء لـم يصـبروا فقـالوا عنـه إلـى الأقـل مـنهم سـنا حتـى وصـلت المعلومـات الخطيرة إلى عامر ولد الحاج الحفناوي الذي لم يتجاوز السادسة من عمره آنذاك.

أنكر عامر هذه الحقيقة التي يبدو أن كثيرا من التلاميـذ اقتنعـوا بهـا، وكثيـر منهم بقي متحفظا عليها، وهي أن كل الآباء يجـامعون زوجـاتهم الأمهـات لـيلا، ومعنى ذلك أن كل تلميذ من هؤلاء التلاميذ يجامع أبوه أمّه ، وحتى يقنعهم قال عمار قدور: أنا نفسي، أبي يجامع أمّي كل ليلة وقد رأيت ذلك بنفسـي مـن ثقـب في الغطاء. وسألت رجلا فقال لولا هذا الذي يسميه (قباحة) ما كانت الأم لتحبـل وتلد أي طفل ، وقال عمار قدور- واثقا من نفسـه ومعلوماتـه -إن كـل واحـد منّـا إنما جاء إلى الدنيا نتيجة (القباحة) التي يقوم بها أبوه ضد أمّه.

احتجّ الطفل عامر بشدة على هذا الكلام الفارغ الذي يـدلّ علـى سـوء تربيـة وانعدام الأدب ، وقال للتلاميذ أنا أعرف عمي قدور جيّدا، وهو رجل طيـب و(نـاس ملاح) ولا يمكن أن يفعل أي نوع من أنواع (القباحة).

وصل هذا الكلام إلـى سـمع عمـار قـدور، بعـد أن نُقّـح وزيـد فيـه مـا يجعلـه مستفزًّا: إنّ عامر قال إنه لا يمكن لعمّي قدور أن يفعل العيـب، وإنّ عمـار يحفـظ كلام ربي وهـو يكـذب علـى التلاميـذ ،ويسـيء الأدب مـع أبيـه وأمـه ويقـول فـي حقهم كلاما خطيرا.

جاء عمّار قدور إلى الطفل عامر وأخذ يقسم له بأغلظ الأيمان:

– واللّه واللّه واللّه وحـقّ سـتين حزبـا . إن شـاء اللّه لا أبـرح مكـاني لـو كنـت أكذب..الحفناوي يجامع أمك سودة واللّه واللّه واللّه.....

أخذ عامر يبكي.. وقال للشاب عمار سأبلغ عن هذا الكلام (نعم سيدي)..ومع أن التلاميذ منعوه من أن يذهب إلى(نعم سيدي) إلا انه أصرّ أن يذهب ليشكو إليه عمار قدور.

قال أحد الأطفال محاولا منع عامر من الشكوى ل (نعم سيدي):

- يا مغفل ستأكل الفلقة حتى تشبع، واللّه واللّه (نعم سيدي) نفسه يفعل القباحة...ها ها ها ها هاها.....

تذكّر عامر كل هذه الذكريات وهو يوجّه عايش الشاب البدوي الأنيق إلى اقتلاع الفسائل الطفيلية من الغرسات الفتية، وحفر المطمور ووضع أبعار الإبل في المطمور وخلطها بالرمل ثم دفنها.

فرح عايش حين دعاه للغداء، عسى أن يرى الفتاة الجميلة صاحبة الثغر الباسم دائما والتي قيل إنها بنت الحفناوي، وهو لم يعرف اسمها بعد.صحيح أنّه يفضل ألاّ تراه في حالة الخدّام الذي يسعى لكسب بعض النقود في العمل اليدوي. بأسماله البالية إنما يفضل أن تراه دائما لابسا أثوابه الأنيقة، ممسكا القارابيلا بإحدى يديه مميلا القنار واضعا اليد الأخرى على خصره. وواضعا مقدمة القارابيلا على القنّار المائل.

تناول عايش لقمة "المطابيق" ورفض أن يستلم النقود مقابل الخدمة في غرسات نخيل الجامع، عيب يا رجل!! الجامع للجميع وليس للحاج الحفناوي، صحيح لقد أثبت عايش أنه لا يقل شهامة عن ابن الحاج الحفناوي، لكن أمله خاب إذ لم يستطع أن يرى الفتاة ذات الثغر الوضّاء.

لم ينس عامر أن يقول لزميله القديم في كتّاب الشيخ حسين إن أولاد حامد كلهم مدعوون إلى عرسه، وخاصّة الشعراء وأصحاب القارابيلا و الزقايري والمؤدّون للرداسي.

بعد الغداء تجاذب عامر أطراف الحديث مع عايش الشاب البدوي الذي يعرف كيف يجعل حفلات العرس مثيرة يتسامع عنها الناس لعدة أشهر بعد العرس، وقال له أن لا يحتسب هو وزملائه من نجع أولاد حامد النفقات على إطلاق

البارود فكل البارود على حساب أهل العرس وإذا لـزم الأمـر كـراء أعـداد إضـافية من آلة القارابيلا. أو أي شيء آخر يتطلب إنفاقا.

تذكر عايش الطالب الحسين، فقد كان يدرس مع عامر فـي الكتـاب، صـحيح أن عامر لم يرحل مع قبيلته إلى البادية وتقدم في حفظ سور القرآن الكبيرة، أما هو فاكتفى بقصار السور. وهي السـور التـي تسـاعده علـى الصـلاة أحيانـا حـين يريد أن يسكت الأب والأم اللذين يوبخانه باستمرار بقولهما إنك أصـبحت رجـلا، ولكـن الرجـل الحقيقـي هـو الـذي يصـلي أمّـا أنـت فتبقـى فـي عـداد "الـذرّ"أي الأطفال.

- أتذكر يا عامر حين ذهبت إلى نعم سيدي تشكو إليه عمار قدور...
- أذكر ذلك لقد قال لي كلاما لم أفهمه لحدّ الساعة.
- وماذا قال؟
- لا أعرف بالضبط ، خشيت أن أقـول لـه لـم أفهـم فيتهمنـي بالغبـاوة وأنـت تعـرف (نعـم سـيدي) ولسـانه السـليط، سـيقول لـي أنـت حمـار وسيضـحك منـي التلاميذ لذلك التفتُّ يمينا وشمالا أبحث عن النجدة..
- وهل وجدت النجدة؟؟؟
- وجدت عمار قدور يبتسم ابتسامة خبيثة ويقـول بصـوت خافـت: يـا مغفّـل كلام ربي يقول: يجوز للرجال أن "يتقبحوا" على زوجاتهم.

- IV -

''العود اللي شْرِفْ مَا يْجِي مِنّهْ مُحْطَافْ'' هذا ما كان يردّده عمي رابح حين يريد تصحيح حركة من الحركات الرشيقة للُعبة إطلاق البارود، لكن الشبان لا يتقنونها، فيحثّونه على أن يفعلها أمامهم كما كان يفعل حين كان شابّا فيردّد على مسامعهم هذه المقولة، ومعناها أنه كبُر ولم يعد بإمكانه أن يقوم بحركات هي من اختصاص الشبان الذين لا تزال أعوادهم ليّنة وأجسادهم طريّة.

يبدو أنّ الاستعداد حثيث فالموعد قريب جدا ،غدا يوم البداية ، ليس هناك زرنة ولعبة بارود لا بدّ من إطلاق البارود إشارة إلى الاستهلال، هذا أمر وارد جدّا في أعراس أهل القرى، سيكون هناك دور لإنشاد الشعر وأداء الرّداسي، صحيح أنّه لا يتقن الإنشاد ولا يحفظ إلا عددا قليلا من الأغاني، لكنّه لا يعرف ما إن كانت صاحبة الابتسامة الوضاءة ستخرج للنحّ أم تكتفي بالمحفل، لا شك أنها كبرت وأخذت في النضوج الجسدي.

''البنت زريعة إبليس'' كما يقولون، هاهي طفلة صغيرة، فإذا بها سرعان ما تتدوّر وتمتلئ وتصبح زهرة يانعة ، تسرّ الناظرين ،وتغري الخاطبين، صالحة للرؤية الغزلية، و للخِطبة والبناء أيضا.

سيكون عايش مستعدا لدخول الحلقة لو اتّجهت نحو (النّحّ)، وخرجت الفتيات، لا بد أنها ستخرج معهن فالعرس عرس أخيها. ومن مظاهر الاستعداد أن يضع في جيبه قارورة عطر، فلو قدّر له أن يواجه فتاته المفضّلة، له أن يسكب على رأسها العطر علامة على الإعجاب وتمهيدا لخطوبة مستقبلية مفترضة.

أطلق الوجه الأول، والوجه هو اللفظ الذي يستعمل للدلالة على الطلقة، فلم يكن من حيث الدوّي الشديد في المستوى المطلوب..

ضحك أحد الشبان وهو يعلق:

- هذا ليس بعيدا عن وجه العرباوي..وهل وضعت أقل من الكأس؟
- بل كأسا كاملا، ربما الجلّة غير جافّة بما يكفي؟
- أرجو ألاّ يكون العرباوي هنا فهو يخشى طلقات البارود من هذا النوع..

وصلت الفتيات إلى باكي يخبرْنَها أن شبان أولاد حامد جاؤوا، وبينهم صاحب "القنار" المائل.

لم يكن بوسعها الخروج لأنها منشغلة بالمساعدة في أعمال الطبخ وفتل الكسكسي، تعالت أصوات البارود فأخذت تلحّ على أمها سودة:

- واللّه.. نشوف شوي ونرجع !!!!!

لكن أمّها سودة لم تأذن لها بعد....

الجلبة والصياح يشتدان والغمز واللمز من الشبان على العرباوي الشاب القروي الذي يتناوله شبان البادية بالتعريض والغمر واللمز، يقولون إنه يحاول أن يكون كأبناء أولاد حامد فيمسك القارابيلا، لكنه يخشى دوي طلقة البارود ويتملكه الرعب، يحرص أن يضع فيها نصف كأس من البارود خشية أن تنفلت من يديه، يرصّ عليها أبعار الإبل الجافة بعصا تسمى المِدَكّ:

يرسلون ضحكات عالية ويتهكمون بطلقة البارود التي أطلقها العرباوي:

- من شدة الذعر ضرط العرباوي فكانت ضرطته أقوى من وجه القارابيلا.!!!!!..

- هاه هاها..هاهاها ها ها....

أخذ عايش القاربيلا ووضع فيها كأسا ونصف الكأس ورصّ عليها أبعار الإبل رصّا جيدا،وامسكها بيد واحدة وأخذ يترنم ببيت شعر وكأنه يناديها تعالي انظري:

خرجت باكي خلسة، ورأت أوّل ما رأت الشاب صاحب القنار المائل، وهو يرفع عقيرته:

- أضْوَى مِنْ لَفْجَارْ خَدّكْ يَا فَجْرَة ..

أضوى من لفجار خدك يا فجرة

عْيُونِكْ جَدْيِ الرِّيمْ فِي سْطُوحْ الْمَجْرَى،

ثم دَاسَ عَلَى الزِّنَادْ لكِن أحد زملائه صاح في وجهه:

- قعّدْ الكلب يا عايش!!!!

أنزل القارابيلا التي كان يصوبها إلى السماء ثم رفع المكبس الذي ينزل بعنف ليطرق على الكبسولة وهو الذي يسمونه:(الكلب)، وأخيرا داس على الزناد فدوى البارود دويّا هائلا، تعالت زغاريد النسوة ، وصاحت الفتاة باكي:

- عرفت الكلب الثالث.... عرفت الكلب الثالث!!!! الكلب الثالث يشعل النار..هو الكلب الثالث..

وكانت تودّ لو صاحت ، عرفت أيضا اسم صاحب القنّار المائل لكنها أحجمت خجلا.

حضرت جفان الكسكسي وتحلق الناس حولها حلقات من خمس رجال وأخذت الأيدي تصعد وتنزل بالملاعق وتصطك على الجفنة، والهمهمات المبتورة تدعو للحاج الحفناوي أن يبارك اللّه له عرسه بالرفاء والبنين... وجاء عامر يحمل إناء من اللحم واقترب من حلقة عايش وأصحاب البارود والقارابيلا، أضاف إلى كل منهم قطعة من اللحم تعبيرا عن الحفاوة البالغة التي يخصّهم بها، وهذه الحفاوة ليست بلا مقابل، على أيّة حال، فالشبّان يعرفون مغزاها وما يجب عليهم إزاءها. اتّسعت الحلقة على ضوء القمر، النساء ينتحين جهة أمام البيت، والرجال أمام الخيمة، وأخذ الكبار دورهم فأخذوا يترنّمون بالموقف: ويرد بعضهم على بعض بترنيمة مماثلة:

نْعَانِي فِي لَسْهَارْ مَا نْرْقُدْ سَاعَةْ مِنْ صَاحِبْ جَعَّارْ عِينَهْ لَيَّاعَةْ

ويتردّد هذا البيت من "الموقف"، والموقف نمط من إنشاد الشعر، ينشده الشعراء واقفين، لكنهم يستهلونه من أماكنهم ويأخذون في التحرك شيئا فشيئا

حتى يستوون داخل الحلقة، بازدياد حماس المؤدين والمتلقّين في ذات الوقت، سواء بصيحات الرجال:

- مربوط... مربوط....مربوط....

أو بزغاريد النساء:

- أوروروروروروروري!!!!!!

وأخيرا تدوّي طلقات البارود، هناك من خارج الحلقة المتسعة لهذه الجموع الغفيرة من الناس.

خرجت باكي مستعدة للنخ، وعيناها على شبان البارود، تتفرس في العمائم، تبحث عن العمامة المائلة إلى جهة اليسار، وهي تتساءل بينها وبين نفسها، هل ترى يحسن إنشاد الشعر كما يحسن إطلاق البارود؟ ترى هل ينتبه إليها حين ترسل شعرها الطويل الناعم يمينا وشمالا؟ أسئلة كثيرة تدور بخلد باكي لكنها لا تملك الإجابة إلا أماني وأحلاما لذيذة ، تتصورها... أن يختارها الشاب صاحب القنار المائل ويرش عليها زجاجة العطر، صحيح أن قبوله خاطبا لها أمر صعب في أسرتها الغنية بنخيلها، وتجارتها وكونها مستقرة في القرية، فهو الشاب البدوي الذي لا يستقر على قرار، يتنقّل بين الحين والآخر مع نجع البادية كلّما جاءهم الرّواد بأخبار الأمطار في منطقة مهما كانت بعيدة.

الرؤية الليلية لا تسمح لها إلا برؤية الكبار الذين يتقدمون رويدا رويدا من وسط الحلقة ،يغنّون "الموقف" أما الشبان فهم في طرف من أطرافها منشغلون بشرب الشاي، الذي يقوم على خدمته الشاب العرباوي الذي يوزع الكؤوس المليئة ويجمع الكؤوس الفارغة ليملأها من جديد. لم يعد بإمكان الشبان إطلاق البارود فالليل يقترب من منتصفه، وأهل العرس لا يرغبون في إزعاج الجيران.

العرباوي لا يحسن إلا تحضير الشاي وتوزيعه على من يستحقه، أما عند إمساك القارابيلا فهو يصبح مهزلة الجميع، كما للعرباوي أحاديث طريفة تشي بفكر شبيه بالفلسفة، فعدم القدرة على إمساك القارابيلا يفسره أن القارابيلا

سلاح حوله الناس عن وظيفته الحقيقية وهي الدفاع ضد الأعداء إلى مجرد استعراض فارغ.

يقولون له متهكمين إن الطهي من أعمال المرأة لكن للشاي حكم آخر، فيرد عليهم لا فرق بين طهي الشاي وطهي أي شيء آخر،والرجولة ليست بالطهي ولا بغيره إنما الرجولة بالشهامة، وكثير من النساء هنّ أكثر شهامة من بعض الرجال.

يقول العرباوي إنه شهم ولن يكون نذلا في زواجه فيتزوج كما يفعل الناس:

- أي نذالة يا عرباوي؟؟
- أن يغتصب العريس عروسته في الليلة الأولى ثم ينتظر منها أن تحبه..!!
- هاهاها...هاهاهاها..
- وماذا تفعل لو تزوجت في يوم من الأيام؟؟
- لن أكون نذلا و لن اغتصبها ولن.....
- في هذه الحالة ستكون هي "النذلة" التي تغتصبك ها ها ها....
- ها ها ها ها .....

يواصل العرباوي توزيع كؤوس الشاي على الحاضرين من المهنئين والمتفرجين والفاعلين في هذا الحفل سواء بالغناء أو بالاستعداد لإطلاق البارود.

- كأسين من هنا يا عرباوي!!!!
- لبّيك يا عايش نحن ننتظر منك ومن فرقتك الشيء الكثير في محفل الغد..

وهكذا يتواصل الحفل ويحمل المغنون الفرح ويأخذون في "الرّدس" وتخرج الفتيات لرقصة النخ، وحتى بعض الكبيرات ممن يبحثن لهن عن زوج مناسب سواء ترملن أو طلقن من أزواجهن.

خرجت باكي لأداء رقصة النّخ، كانت متألقة بالحْرام الجديد وشعرها الطويل الناعم،عندئذ فقط عرف عايش أن اسمها باكي حين سمع شبان القرية يهتفون باسمها:

- باكي خرجت !! باكي خرجت!!..

لكنه كان مصرا على أن يسميها بينه وبين نفسه "فجرة" وحتى شبان البارود والقارابيلا يعرفون شغفه بها، فهي طويلة رشيقة القوام شعرها طويل ناعم يكاد يكسو جسدها الغض، وهم يسمعون عايش يقول بينه وبين نفسه:

-ترى هل تخرج "فجرة" اليوم، وهل أتمكن من رؤيتها؟؟

- عايش عايش!!!.

-فجرة خرجت !! فجرة خرجت!!...

وفجرة التي يتحدث عنها عايش هي نفسها باكي بنت الحاج الحفناوي، لكن عايش لم يكن يعرف اسمها، فأطلق عليها هذا الاسم نظرا لأنه كان كثيرا ما يتغنّى بقصيدة:

أَضْوَى مِنْ لَفْجَارْ خَدّكْ يَا فَجْرَة!!!

أضوى من لفجار خدك يا فجرة!!!

عْيُونِكْ جَدْيِ الرِّيمْ فِي سْطُوحْ الْمَجْرَى.

وهو حين يتغنّى بهذا البيت إنما يرسم في مخيلته صورة الفتاة الجميلة ممشوقة القوام صاحبة الابتسامة الوضاءة يصف تلك الابتسامة بالفجر إذا شعشع..

جاراه زملاؤه في هذا الاسم..وهم يصفونه تارة بالمجنون وطورا بالأبله، فليس في حبّه لفجرة أي شيء من الواقعية، فهو كمن يتعلق بسراب..هكذا كان شبان النجع يتهكمون به...لكنه كان يسخر منهم، إن القلب لا سلطان لأحد عليه وكان يردّد قول الشاعر:

يَا قَلَبْ دَرْبِيتْنِي وُحْبَالَكْ بَايْدَةْ وْتَنْزِلْ مَنَازِلْ وِينْ مَا ظَنِّيتْ.

فكّر عايش في أن يبادر إلى المؤدّين فيمسك معهم الطبل الضخم أو (الفرح) كما يسمُونه في البادية، لكنه فضّل التروّي، فهم لا يبدؤون عادة بالأغاني التي يصاحبها التوقيع على الفرح، إنما يبدؤون بالموقف والمزيود وهي الأغاني التي يركّزون فيها على الكلمة الشعرية المعبرة المهيّجة للمشاعر والمحركة للأحاسيس والمنشطة للأخيلة.

كما أن منظره لن يكون مقبولا وهو يقف دون أن يردّد الشعر الذي لا يحفظه، فالرداسي أفضل حال فهو يحفظ الطالع في المرّة الأولى ثم يكتفي بترديده، بين كل دور ودور، ومع ذلك تردّد عايش، وظل يرقب فجرة من بعيد.

الرؤية على ضوء القمر تضفي غموضا ساحرا، تترك للخيال أن يضيف لمسات فنية ليست في الواقع. وضيئة إضاءة الفينار في الليلة الدهماء، العينان السوداوان تجذبان النظرة بيد حريرية محاولة استجلاء مزيد من السحر والجمال والفتنة. الجلوس هنا لو كان وحيدا بعيدا عن هذه الجلبة كان أجمل شيء يتمناه والسعادة التي يجدها في الفردوس البهيج، الذي يسمع عنه في خرافات عمي رابح، حين يجثو في محراب فجر فجرة..

اهتزّ المتفرجون ابتهاجا، تسمع آهات استحسان من أركان متباعدة في الساحة الواسعة، يتوسط الحشدان، نسوي من جهة الشمال قريبا من مدخل البيت المزدان بجريد النخيل الأخضر، وحشد الرجال والشبان الذي يجلسون إلى الجهة المقابلة، وفي الوسط يوجد الفرح وهو الطبل الضخم الذي يتقدم إليه الشعراء رويدا رويدا، ينشدون الشعر في المستهل من غير توقيع على الطبل، ثم يأخذون في التوقيع.. يأخذ الطبل الضخم رجلان، أما الثالث وربما الرابع والخامس فيتجاوبون بترديد اللازمة.

لكن آهات الاستحسان والابتهاج صدرت بسبب خروج الفتيات يرسلن فروعهن الطويلة والمنسدلة على الظهر والكتفين، والحرام الأسود المزدان بشرائط ملونة الأبيض والأخضر والأحمر...وكأن صانعي الألوان الوطنية

استوحوها من حرام النساء السوفيات لولا اللون الأسود الذي لو شئنا التأويل المجهد لقلنا إنه ليل الاستعمار الحالك.

أخذت الفتيات الأكبر منها سنا يرسلن شعرهن وفق ضربات الطبل، يمينا وشمالا، وإلى الخلف والأمام ..إيقاع تشحنه الأصوات النديّة الحماسية للمؤدين، وأكثرهم شباب يقودهم كهل يقترب من الخمسين. يذكرهم بأوائل الأبيات ..

وفجأة خرج عايش ليمسك الفرح .. ويردّد مطلع القصيد، أو اللازمة مع المردّدين، وهو ينوي أن يرقب فجرة عن قرب..

لكن إشارة خفيفة منها وهي عبارة عن ابتسامة رضا ..ذكّرته برداسي كان قد حفظه عن ظهر قلب..وأشار إلى أحد الرفقاء أن غيروا القصيدة...

ثم أخذ ينشد ومعه أحد الرفاق:

فَرْحِ الرِّزَمْ كِي لِفَنْ لَهْ حَرَايِرْ

بَدَا الْفِتِنْ ثَايِرْ

عْيَادْ الّلفَوْ شَاوْ عِقْدْ النّدَايِرْ

البدو أذكياء في هذا المجال إلى درجة مذهلة، فقد فهم المؤدون اللعبة..تراجع الكهل،وتراجع الرفاق فلم يبق إلا عايش وصديق له قد فهم قصده جيّدا بإشارة سريعة..وهو يكتفي بإمساك الفرح وترديد اللازمة: فَرْح الرَّزَمْ كِي لِفَنْ لَهْ حَرَايِرْ...

تراجعت رفيقات باكي بعد أن نال منهن التعب لم تبق إلا واحدة ألحّت عليها باكي في البقاء.... لكن باكي بقيت..تصرّ على الصمود رغم التعب الذي نال منها...كما نال التعب من عايش ،لكنه ظل مصرّا على البقاء ...وحين انسحبت رفيقة باكي أو فجرة كما يسميها عاشقها عايش، اهتزّت الجموع وقد فهمت ..أن الفتاة الممشوقة القوام البيضاء ذات الابتسامة الوضاءة، رغبت في عايش الشاب الأنيق صاحب القنّار المائل، وها قد غيّر الرداسي كأنما يبدأ من جديد، وقد كيّف القصيد الذي ينشد عادة على طبع المردوف، ليصبح رداسي متقارب

الإيقاعات...وهو قصيد فهمه الحاضرون من قبيلة أولاد حامد الذين يعرفون ولع عايش بالفتاة الجميلة بنت الحاج الحفناوي والتي يسميها فجرة..

أضوى م لفجار خدك يافجرة

أضوى م لفجار خدك يا فجرة

عيونك جدي الريم في سطوح المجرى...

ولم تعد باكي قادرة على المقاومة..فقد كادت أن تسقط على الأرض، حين أرسلت فرعها مرّة إلى الخلف..فقدت التوازن..وإنها لفضيحة..فمن يرغب الزواج منها لو سقطت على ظهرها أمام الشاعر...حمي الوطيس وطيس العرس..واشتدت زغاريد النسوة لا سيما من قبيلة أولاد حامد...البنات من خلفها يشرن إليها بالانسحاب..والشباب من خلف عايش يهتفون له: - القنار المائل يا عايش القنار القنار المائل يا عايش!!!..

أما الفتيات فهن يهمسن لباكي: الشال الشال يا باكي...

فقانون (الفتن) كما يسمّى عند البدو..أن أحدهما لا ينسحب حتى يقدم رمز اعتراف لنظيره، إما أن ترمي الفتاة شالها للشاب ثم تنسحب اعترافا له..أو يرمى الشاب عمامته..للفتاة اعترافا لها...فمن يا ترى يعلن هزيمته أمام الآخر، الفتاة الريفية أم الشاب البدوي؟

****

-٧-

اجتمع الرجال في المسجد بعد عصر هذا اليوم الخميس، لعقد قران الشاب عامر بن الحفناوي على الفتاة يمينة بنت الشيخ ميلود الشامسي، وعلى الرغم من أن الشيخ ميلود هو الآخر طالب قرآن كما درس لفترة قصيرة في تونس. إلا أن العقد تم تحت رعاية وإشراف الشيخ الحسين طالب النخلة والخبنة، الذي يستفتيه الناس حتى من القرى المجاورة مثل العقلة والرباح وغيرهما.

بينما كان الحفل متواصلا في الساحة الواسعة للقرية، الزرنة والبنادير، والرقص بواسطة القارابيلا وإطلاق البارود، خرجت باكي، تفرست في وجوه اللاعبين الزقايري، وللمفاجأة لم تجد عايش، صاحب القنار المائل.

-العُرْسْ يَبْغِي الدِّوِيلَةْ وُالْخِيلْ تَبْغِي الْمِشَالِي

وُالِّلي خَرَجْ مِ القَبِيلَةْ يَرْخَصْ إِذَا كَانْ غَالِي.

هكذا رفع العرباوي عقيرته، وهو يطوِّح بهذا الموّال...وهو يرسل رسالة، وذلك بعد أن هدأت مراجيع الزرنة، ليتاح للنافخ والضاربين على البنادير أن يرتاحوا، غير أن المطلقين للبارود، يعملون بنظام الفريق، فلابد من الجهوزية الفوريّة، لذلك أطلق الفريق الثاني البارود في سلسلة طلقات من ست إلى سبع طلقات..ثم تعالت الزغاريد..

فهمت باكي الرسالة، وأحجمت عن الزغردة، وصدّت ملتفتة إلى الخلف لاسيما أنها لم تر الشاب صاحب القنار المائل.

فكرت بينها وبين نفسها، هل ترى ذهب ليشتري قنارا جديدا، ألم يقنعه قنار أي شاب من شبان قبيلته يستعيره ليرقص به الزقايري، بعد أن تنازل عن قناره في الفتن الذي دار بينهما الليلة البارحة.

لقد انهزم أمامها، أو تظاهر بالهزيمة، من يدري؟؟ لعله فكّر في موقفها أمام القرية، ماذا يقول أهلها وبنو عمومتها لو أنّها رمت بشالها لشاب بدوي من خارج القبيلة.

ومع ذلك فللمنافسة معنى وللإصرار معنى آخر. ولقبولها استلام قنار الشاب البدوي معان كثيرة لا شك سينكرها أقاربها من الشبان، والكبار أشدُّ إنكارا. وها قد بدأت بوادر الإنكار من الفتى العرباوي الذي هو ابن خالها، وقد لوّحت والدته علجية أكثر من مرة بإمكانية خطبتها لابنها العرباوي وليس لها أبناء عمّ، فهو أولى الناس بها حسب أعراف القبائل البدوية أو حتى الريفية التي استقرت أخيرا على غراسة النخيل.

المقطع الشعري الذي هتف به العرباوي، يشير إلى أن المرأة إذا خرجت وتزوجت من خارج القوم فلا يعيرها أحد أي قيمة مهما كان جمالها وصفاتها الأخرى.

أتتزوج العرباوي، الأضحوكة لدى الجميع؟؟ الموت أهون عليها. فكرت في خطة ماذا لو ظهر عايش حبيبها من دون قنار؟عزمت أن تعيده إليه حتى تموّه على الناس، أو على الأقل على العرباوي خشية أن يتقدم إلى طلب يدها بعد العرس مباشرة..وللأسف فوالدها سيقبل به على الفور دون استشارتها ،فليس ثمة مبرر للرفض من جهة قرابة الدم، ومن جهة الغنى واليسار، ومن جهات أخرى كثيرة. أما قلب باكي وما يميل إليه فلا عبرة به حسب تقاليد الشيوخ والعجائز: -تحب زوجها الذي تختاره لها الأسرة بعد الزواج لا قبله.

أخذت باكي الكيس الذي خبأت فيه قنار عايش،ووضعته تحت كمّ الحرام، ولمن لا يعرف الحرام (بتسكين الحاء وترقيق الراء) فله كمَّان كبيران يسدلان إلى ما دون الركبتين، وعزمت على العودة إلى المحفل. وأن تعيد له عمامته حتى لو جاء بعمامة جديدة.

- باكي باكي....القنار القنار...

هكـذا هتفـت لهـا رفيقاتهـا مـن الفتيـات اللاتـي يعـرفن تعلقهـا بالشـاب البدوي...

المزمـــار يُحمـــي الجـــو العـــام والرقص..والبنـــادير ووجـــود طلقـــات البارود....وبحثـت بـاكي عـن حبيبهـا ...لـم تكـن تعـرف أنـه أنيـق حتّـى مـن غيـر قنّار...شعره أسود فاحم كثّ يسحر الألباب..عايش عايش...هكذا التفت إلى حيث الحفّالات ..فإذا بالقنار يطير في الهواء ليسقط أمام قدميه أمـام دهشـة الجميـع. ثم اتخذت مكانها في صف الحفّالات وهنّ الفتيات اللاتي لـم يـرتبطن بخطوبـة، أو المطلقات أو الأرامل صغيرات السن.

أخذ عايش (قنّاره) وخرج من الحلقة الكبيـرة أمـام إعجـاب الجمهـور بحركاتـه الرشيقة في تنـاول القنار في يَدٍ والقارابيلا فـي اليـد الأخـرى ثـم يطلـق البـارود ضاغطا على الزناد.

كثر اللغط والهرج والمرج...فمن قائل إن عـايش لـن يعـود إلـى المحفل،فقـد عادت إليه عمامته، فبعد أن قبلتها باكي البارحة، أعادتها إليه اليـوم..تعبيرا عـن رفض الارتباط به رسميا..ومن هـؤلاء العربـاوي وشـقيقاته،وبعض أهـل القريـة من أقارب بـاكي الـذين لا يـرون فـي لقطـات الفـتن التـي قـام بهـا الشـابان ليلـة البارحة؛ أي المنافسة في الرداسي والنحّ أي نصيب مـن المعقولية..لـذلك أعـادت إليه قناره أمام الجميع لتعلن للجميع أن الأمر كان مجرد لعبة تتفوق فيهـا الفتـاة القروية على الشاب البدوي.

أما زملاء عايش وحتى بعض النساء الحاضرات من قبيلة أولاد حامد فقد رأوا أنّ فجرة تحب عايش ولكنها لم تشأ أن تحرجه أمام أهلها أصحاب العـرس الـذين لا ينظرون إليه إلا كمنشط لحفلات العرس،حتـى يقـوم بـدوره فـي هـذا العـرس على أكمـل وجـه. وربمـا فعلـت ذلـك إسـكاتا لـبعض الأصـوات المعترضـة والتـي ظهرت بعض بوادرها في موّال العَرباوي.

ومع كل تلك التأويلات المتضاربة، فقد عاد عايش في المرجـوع التـالي إلـى حفلة العرس وقد لبس القنار وميّله أشد مما كان عليه.

بدأ المرجوع الثاني بعد فترة الراحة وبعد موّال العرباوي الذي لمّح فيه إلى حتمية الزواج الداخلي لكل من يرغب في الزواج ولاسيما الفتيات ملمحا إلى عبثية رغبة باكي في عايش، في العرف الاجتماعي، تلك الرغبة التي ظهرت بادرة منها البارحة أثناء الفتن (أي المنافسة)حتى يتم القضاء عليها في المهد.

تناول القارابيلا ووضعها على القنار المائل وأخذ يقترب من صف الفتيات الحافلات أي المستعرضات زينتهن أمام الشبان. بأناقة وخفّة ورشاقة كان يمسك القرابيلا بيد واحدة ويضع فوهتها قريبا من القنار..كل الشبان لاسيما شبان قبيلته أولاد حامد، كانوا يرقبونه وكذلك الفتيات. اللاتي سحرهنّ بحركته الباهرة التي تخلف وراءها بعيدا حركات الشبان لاسيما القرويين منهم. وصل قريبا من باكي وادخل يده في جيبه وأخرج قارورة العطر بحركة خاطفة وأفرغها على رأس باكي، تحت زغاريد النسوة ولاسيما منهن القادمات من ربع أولاد حامد.

لم يكن عايش جبانا، ولا رعديدا ولا عديم الثقة في نفسه،ولم يكن يأبه بأموال القرويين من أصحاب النخيل ، إنما كان واثقا أن حريته وحبّه لفجرة أقوى من نخيل الدنيا كلّها، لهذا عزم في قرارة نفسه أن يقدم على الخطوة الحاسمة، التي تفرض على الجميع احترامه وأوّلهم فجرة.

لا بدّ أن الأمر لا يهمّ عايش وحده إنما يهمّ قبيلة أولاد حامد قاطبة، فهو يتعلق بفرض ذواتهم وحدة اجتماعية لها اعتبار بين الجماعات التي تعيش بينها، ومن ثم قرّر أن يجعلهم شركاء له في هذا الأمر، وأن يكون التحدّي الأكبر أن يفرضوا مصاهرتهم على هؤلاء القرويين ملاك النخيل وهم الذين تمدّنوا وأصبحوا ينظرون للبدو من عل، الأعراف والتعصّب القبَلي لن تقف مانعا أمام حبّه لفجرة وهو يعلم أنها تبادله مشاعر الحب والاحترام بل تتمناه شريكا لها في حياتها.

هناك طُرُقٌ عدة لفرض الأمر، لكن في البداية لابد أن يدخل الناس البيوت من أبوابها قبل التفكير في الحلول الثورية. من بين تلك الحلول الثورية، الحلّ

الذي فرضه عمّي رابح حين كان شابا على قبيلة أولاد صابر... لنترك الأمر للأيام. علها تكشف أشياء لم تكن تخطر على البال.

هكذا كان عايش يفكّر وهو عائد إلى نجع قبيلته بعد انقضاء الحفل البهيج حيث أوصل رسالة حبّه إلى الجميع، وعبّر عن اعتداد بالنفس يستحق الاحترام. لذا كان يسير منفردا بينما كانت الجلبة بين الشباب والشيوخ الذين قرروا قطع المسافة بين (الخبنة) و(باغام) على الأقدام.

****

-VI-

الشّيرَة تْدِلّ الذّاهِبْ ، وْحِمْلِ الْجَمَاعَةْ رِيشْ....هكذا كان يفكر عمارة والد الشاب عايش في ذلك الصباح الباكر، بعد أن أدّى صلواته وأذكار الصباح .

الحيفان..الخيام المصطفة جنبا إلى جنب،تنتشر بينها بعض أشجار الأزال والمرخ والطرفاء على غير نظام ، كما أن الأشجار تبدو أخشابا وأعوادا يابسة أما الأوراق فهي جافة وربما توجد في الأعلى بعض الأوراق الخضراء الباهتة أو التي بقي فيها شيء من الخضرة قليل .

أما في الجهة المقابلة للخيام فبضعة من رؤوس الإبل ..قد أناخت على الرمل الناعم ،وقريبا منها انتشرت شويهات من الماعز وصغار الخرفان...تتشمم الأرض علها تجد بعض ما بقي من جذور الحلفاء.

- عمي رابح !!!! عمي رابح !!!!..

طفل يافع يخرج من الخيمة الكبيرة ويصيح متجها نحو خيمة عمي رابح التي نصبها بعيدا عن بقية الخيام...إلى جهة الشمال..

يخرج الشيخ رابح من خيمته ،فهو حكيم نجع أولاد حامد، أو هكذا اتخذه شبانهم ، وأوّلهم عايش بن عمارة اللباد.الشاب العاشق..

- عمي عمارة يدعوك إلى شرب الشاي معه في خيمته.

لابد أن في الأمر شيئا آخر غير شرب الشاي. فعليّ أخو عمارة أيضا يتجه نحو الخيمة ..وخلفه ببضعة أمتار يسير الطالب الساسي..هكذا كان عمي رابح يفكر بينه وبين نفسه وهو يسير متجها نحو خيمة عمارة والد الشاب عايش.

بعد التحية والسلام والسؤال عن الصحة والأحوال.. وتوزيع كؤوس الشاي على الحاضرين ..استهل الكلام والد عايش :

- يبدو أن الطفل عايش يريد توريطنا مع الحاج الحفنـاوي وابنتـه ،صـحيح أن الأعراف المعمول بها لا تستسيغ زواج ابني عايش من بنت الحاج الحفناوي، فهـم بعيدون عنا من حيث الانتساب القبلي ، ولم يحدث أبدا أن تصـاهرت قبيلتنـا مـع القبائل المستقرة على واحات النخيل ...

قاطعه الطالب الساسي قائلا:

يا عمارة الزواج أساسه الطلب القبول وليس لـه أسـاس آخـر ،ونحـن نـرى ابننـا كفؤًا لابنة الحاج الحفناوي مهما كان رأيهم فينا وفي ابننا، نتقدم ونطلب يـدها ، وله أن يعترض بحجة أو بأخرى.. مفهوم أنهم يسـتغربون طلبـا مـن هـذا النـوع، لكننا لن نخسر شيئا إن نحن أقدمنا على هذه الخطوة وربما نخسر كثيـرا لـو أننـا أحجمنا.

– أصداء حفلات عرس ابن الحفناوي... وصلت إلى مسامع أهل القرية ، وربما القـرى المجـاورة كـذلك، فلـو لـم نتقـدم صـراحة أمـام البعيـد والقريـب للخطبـة فسيقال عنا إنّنا استصغرنا أنفسنا أمامهم وهو أمرٌ لا نقبله على أنفسنا.

– لا فض فوك يا شيخ رابح ،نعم القول قولك.

– فلنتوكل على اللّه إذن، ولنذهب إليهم ظهر الجمعة فهـو يـوم مبـارك ولـن يحدث إلا الخير كل الخير.

– وهكذا نقيم الحجة على عايش الذي يُلحّ في هذا الأمـر، ونرفـع مـن قـدرنا أمام أهل القرية..إذ نبلغهم اعتدادنا بأنفسنا..فلسنا أقـل مـنهم شـانا وإن كـانوا أكثر منا مالا.

– على بركة اللّه...

قام المجلس وخرج الرجال من الخيمة ، أما عمّي رابح فقد عاد إلى خيمتـه،وأما بقية الشيوخ الطالب الساسي وعمارة وأخوه علـي وآخـرون فقـد رأوا مـن الواجـب تبليغ الشاب عايش بقرار الجماعـة ، وهـو لا شـك سـيفرح بـه. وهـو يرغـب فـي تعجيله ما أمكن لهم التعجيل.

استقبل عايش الجماعة وهو قريب من البئر حيث كان يملأ الماجن بكمية كافية من الماء لترد منه الإبل .إذ كلف بعضا من الشبان والرعاة بإنزال "الذود " إلى مرابع القوم في "باغام" والذود لفظ يطلقه البدو على جمع من رؤوس الإبل حين ترد الماء.

- أهلا وسهلا بشيوخ قبيلة أولاد حامد..لا شك أن الذي جاء بكم أمر بالغ الأهمية.

- جئنا نبلغك بعزم والدك التقدم إلى قرية الخبنة يوم الجمعة.وزيارة الحاج الحفناوي..

- واش ينفع الضراط بعد خروج الروح؟؟ !!!!!

- ماذا تعني يا عايش؟؟

- بلغني أن علجية العوراء أمّ العرباوي خطبت فجرة لابنها..وأن الحاج الحفناوي وافق على تلك الخطبة الملعونة..

- لم تخرج الروح بعد..الخطبة تعني مجرّد كلمة تقال ..أو وعدا يرجى إيفاؤه..ونحن لا نعلم عن تلك الخطبة شيئا.

- الغرض أن نعلن عن اعتدادنا بأنفسنا واستحقاق ابننا لكريمة الحاج الحفناوي. استعدّ ليوم الجمعة وأصلح من شأنك والبس أفضل ثوب لديك حتى تكون في مظهر مشرّف.

- يجب أن تنهض باكرا لأننا سوف نبدأ بالتسوق في المدينة أولا، ثم نعود في وقت مبكر حتى نصلي الجمعة في جامع الخبنة.

- على بركة اللّه ..أضعف الإيمان إقامة الحجة..فقد بدأت أفكر في حلّ آخر منذ أن بلغني نبأ الخطبة المشؤومة.

- حذار التهور..بيننا وبين القوم مودة وأخوّة وحسن جوار..وهم دائما كرام معنا كلما قصدناهم في أمر من الأمور .

نظر القوم من الكبار بعضهم إلى بعض؛ علي عمّ عايش والطالب الساسي الذي لم يكن "طالب" بالمفهوم الحقيقي للكلمة كما عند العامة من أهل سوف ، وهو الذي يحفظ القرآن كاملا..ويقرئه للصبية ويصلي بالجماعة..فالساسي لم يحفظ القرآن ..إنما وصل ربعه أو أكثر من الربع بقليل..ثم آن ميعاد الرحيل فترك الكتاب ...ورحل مع قومه إلى البادية ..ولم يكن لربع أولاد حامد جامع ولا كُتّاب ، ولم يكونوا يجدون الوقت لأداء الصلاة جماعة. ومع ذلك فحين يجتمع الشيوخ للراحة بعد تناول العشاء جماعيّا بمناسبة أو أخرى كالمواسم والأعياد أو المناسبات الاجتماعية، يقدّمونه للصلاة إماما وهم يرددون المثل المشهور" العمشاء في بلاد العميان تسمى أمّ الأعيان".

كانوا قد تركوا عايشا عند البئر يستكمل السقاية ، وقد وفد إليه بعض من الشبان يساعدونه في استخراج الماء من البئر بواسطة دلْوٍ كبير صنعوه من جلود الإبل.

قال الطالب الساسي:

- أخشى أن يتهوّر عايش..ويفعلها..

- أنا أعرف ابن أخي جيدا ..إنه عاقل ..لا أظن انه يفعلها..ربما وقر في وجدانه أن العلاقة بيننا وبين الحفناوي وقومه أثمن بكثير من مجرد فتاة جميلة، لا شك يجد بين فتياتنا من هي أجمل منها.

- المشكلة يا سي علي ليست الرغبة في فتاة جميلة وكفى.. الأمر أبعد من ذلك بكثير.

- صحيح أن الفتاة بادلته المشاعر..وهي لا يمكن أن تقبل العرباوي إلا على مضض وإكراه... فإن لم يتقدم عايش يعتبر نذلا في عينيها. أما إن أقدم على خطوة تدل على فروسية ومغامرة فيكون عايش معبود تلك الفتاة العمهوج لا مجرد زوج لها.ولكن هل ترى أن عايش لا يحسب حساب الفشل ..

– يا علي ..القلب سلطان طاغية لا يترك لمن تمكن منه مجالا لأن يحسب حسابا لأي شيء. حتى لو كان حياته نفسها ، فما بالك بعلاقة جوار يمكن استبدالها..هذا في حال الفشل .

– أما في حالة نجاحها..فستتحول إلى مصاهرة ..وقرابة .سيصبحون أخوالا لأبنائنا ..وبما أننا بدو نعتدّ بأنفسنا إلى حدّ الغرور..تشرفهم المصاهرة مثلما تشرفنا.

– الخطوة التي يفكر عايش في أن يقدم عليها ليست غريبة عن البدو وعن قومنا بالذات، فرابح ..أقدم عليها مع قبيلة أولاد صابر..وعلاقته بهم اليوم..من أحسن ما تكون العلاقات بين الناس.على الرغم من أن المسكينة ماتت إثر كارثة من الكوارث الكثيرة التي تحلّ بالبادية من حين لآخر.

– ولا ننسى مبارك بن الميداني، الذي فرّ مع زوجته الحالية من حفل لقبيلة المعاشير، ومن حفل الزواج مباشرة إلى زاوية الرباح حيث أرسل الشيخ سيدي ليمام إلى والدها ليحضر قران ابنته التي أقرت أمام الشيخ أنها فرّت معه بمحض إرادتها.

– وقد حدثنا الكبار من قومنا أن رجالا كثيرين من قبائل أخرى أقدموا على تهريب فتيات بادلوهنّ مشاعر الحب حين سُدَّت السبل في وجوههم للبناء بهنّ بالطريقة المقبولة اجتماعيا.

– من يستطيع أن يقنع عايش بعدم التفكير في هذا الأمر؟؟

– لا شك أن كل شباب نجع أولاد حامد يكنون احتراما كبيرا لعمهم رابح ، فهو صديق وجليس ومؤانس ، قبل أن يكون الحكيم الذي يستشيرونه في كل شؤونهم. فهو الوحيد الذي يستطيع – لو أراد ذلك- أن يثني عايش عن عزمه.

****** ****** ******* ***** ****** ****

-VII-

الدَّلْو ثقيل جدا ، يمكن أن يسع أربعين لترا من الماء أو يزيد، لذلك فسحبه من البئر بواسطة الحبل يتطلب جهدا عضليا كبيرا،ومع أن البكرة الخشبية تساعد قليلا على سحب الدلو بمجهود أقلّ، إلا أن معنويات عايش كانت في الحضيض، الأمر الذي جعل شبان النجع يتعاطفون معه، ويلحقون به عند البئر غزيرة المياه التي حفرها أولاد حامد ، ويقومون على إحيائها دوريّا كلما أحسّوا أنّ مياهها تتناقص فتوشك على النضوب، وفد الشبان على البئر للتسرية قليلا عن عايش ومساعدته على ملء الماجن وهو الحوض الكبير المشيَّد بالجبس والحجارة .

تجاذب الشبان أطراف الحديث فيما يتعلق بحفلة عرس الحاج الحفناوي، في الخبنة، وقال أحدهم :

- حفلات زواج الحاج الحفناوي لن تمُرّ بالساهل.
- ماذا تعني؟
- وراء العِلْب ما وراءه.
- لن يكون وراء العلب شيء ،لأننا في عصر لم يعد فيه معنى للكرامة والمروءة ، فلو كان الأمر في عهد أجدادنا، لسقطت رقاب غليظة...
- لِمَ تهول الأمر؟؟ لا أدري يا عايش ما الذي أصابك اليوم..
- ألم تسمع عما حدث بعدنا؟ علجية العوراء، بعد حفل الزواج مباشرة خطبت فجرة لابنها العرباوي..والحاج الحفناوي وافق مبدئيا وذلك تفاديا للكلام الزائد الذي يمكن أن يقال بعد ما حدث في الحفل.
- بالعكس سيتكلم الناس لا محالة ...ولكن ما عساهم يقولون ..

- سيقولون أحبّت شابا بدويا من نجع أولاد حامد ،وبادلها الشعور نفسه ، لكن أباها عجّل بإكراهها على الزواج من ابن عمتها...

- وسيقولون أن ذلك البدوي النذل وقف متفرجًا ، عاجزا عن أي فعل.

هكذا قال عايش بصوت حزين ..ثم أرسل تنهيدة حارّة.

- الويل لهم ..لن يستطيعوا ...البدوي شهم وأولاد حامد بالذات أكثر البدو شهامة ..والدليل أن كبارنا يتوجّهون غدا الجمعة إلى الخبنة لخِطبة العمهوج بنت الحفناوي لابنهم عايش...فهو كفؤ لها .

- لكن هذه الخطبة كمن ينفخ قربة ممزقة..نتيجتها السلبية معروفة مسبقا.وهدفها حفظ ماء الوجه أمام أهل القرية لا غير.....

- ورفع الحرج عن عايش إزاء عشيقته....

وبانفعال شديد هتف عايش وأوداجه تكاد تنفجر وسط رقبته :

- أبدا....لن يرفع الحرج...إلا أن احتضنها حليلة..وأدخل بها خيمتي...ولتسقط الرقاب بعد ذلك...

- دع عنك هذا التفكير، الساعةَ على الأقل ، ولننظر لعلّ عمّي رابح ينجح في إقناع الحاج الحفناوي بأن يتريث في قبول خِطبة العرباوي.وأنت تعرف أنه شديد الذكاء لاسيما في مثل هذه الأمور.

- صحيح ...التفكير في هذا الأمر سابق لأوانه. لنترك الأيام تحكم في المشكلة. لعل الأمر ينتهي بخير..

- لقد سبق أن نبّهناك يا عايش.. .. الحب يجب أن يستند إلى الواقعية..والعقل ..لكنك في حبك لفجرة تخليت عن كلّ شيء إلا عواطفك المشبوبة.....

- دع اللوم فليس وقته بعد أن اتسع الخرق على الرّاقع....

- بل قل انضمّ الخرق على الخارق....هاهاهاه.

- ها ها ها ها ها هاه....

هكذا أراد أحدهم أن ينقل الغمّ الذي سيطر على الحوار إلى مزاح....ولو أن عايش لا يقبل المزاح في هذا الأمر بالذات.

امتلأ الماجن بالماء..أخذ عايش الدلو والحبل ..ودعا أترابه إلى الانصراف..فالذود لن يحضر إلا آخر العصر أو بعده قليلا. وهكذا عاد الشبان إلى حيفان القبيلة وهم يتجاذبون أطراف الحديث ، فيما يمكن أن يقع إثر خطوبة الفتاة العمهوج فجرة والتي يتوقعون فشلها مسبقا.

وصل الشبان إلى خيمة عمي رابح منهوكي القوى فالبئر بعيدة والدلو ثقيل لكن العامل الأكبر تأثيرا كان المعنويات الهابطة لهؤلاء الشبان المتعاطفين مع صديقهم عايش.

لقد اقترحوا عليه أن يهبوا معه إلى القرية تحت جنح الظلام ويساعدوه على خطفها والهروب بها إلى نجعهم ، ووضع الحاج الحفناوي والعرباوي وأمه أمام الأمر الواقع، لكن عايش رفض الاقتراح بحجة أنه لم يسمع أن فارسا استعان بمجموعة من رفاقه على أمر شخصي.خاص في أعلى درجات الخصوصية.

- صحيح ، فهي كارثة إن لم تنجح العملية ..
- لكنها مشكلة حتى لو نجحت...فالجميع مُسْهِم في الفعل ومن حقه المطالبة بحقه...في النتيجة !!!!.
- دعنا ، فليس هذا مجال المزاح....
- يجب أن أقوم بهذه الخطوة بمفردي حتى أكون أهلا لذلك الاستحقاق.
- ولكن ليس قبل أن نستشير عمي رابح فقد أقدم على هذه الخطوة قبل خمسين عاما...
- العصر تغير والناس تغيروا وكل المعايير تغيرت....

اقتربت الجماعة من خيمة عمي رابح ..لكن الرجل خرج إليهم وادخل عايش إلى خيمته بعد أن احتضنه معبرا عن تعاطفه...لكنه صرف بقية رفاقه برفق قائلا:

- هل تسمحون لي بالانفراد الليلة فقط بفارسنا العاشق ...فلي معه حديث خاص..؟

- لك ذلك يا عمي رابح ..تصبحان على خير...

دخل عايش مع عمي رابح إلى الخيمة، أما الرفاق فقد انصرفوا إلى خيامهم في حيفان النجع، فعمي رابح باعتباره رجلا أعزب، يريد أن يبقى معزولا في خيمة بعيدة عن الحيفان.وربما يعودون إلى خيمة عمي رابح بعد العشاء وبعد أداء الصلوات، على الرغم من أن الشعور العام بين شبان النجع ليس على ما يرام. فهذه الحادثة ، خطبة العرباوي لفجرة بنت الحاج الحفناوي على الرغم من الدلائل الساطعة على حبها للشاب البدوي عايش، تشير بوضوح إلى تدهور قيم الاعتداد بالنفس والعزّة والكرامة عند القرويين الذين تسربت الدنيا إلى قلوبهم، فالشرف عندهم أعداد النخيل التي يمتلكونها، مادام البدو لا يمتلكون النخيل إنما يمتلكون الإبل، وهي معرضة للضياع في الصحراء ولقطاع الطرق الذين ينهبونها، وقد يذبحونها. الإبل عند البدو ذات قيمة كبيرة أما عند أنصاف الحضر فلا قيمة لها إلا بقدر ما على ظهورها من اللحم والشحم.

أي بدوي شهم، لا يمكن ان يتقدم إلى أية فتاة مهما كانت إذا وقر في ذهنه أنها ترغب في غيره، فما بال هؤلاء القرويين لا إحساس لهم كأخشاب النخيل. لكن السؤال الذي يلحّ على شبان نجع أولاد حامد، ما موقف عمي رابح، الذي يعلمهم قيم البداوة، هل يمكن أن تتهاوى دروسه كلها أمام لقمة عيش ملطخة بالذل، وماذا سيقول لعايش لو اعترض عليه بما كان يقصه عليهم من مغامرته التي نجح بعدها في الفوز بالفتاة الصابرية.

طال انتظار الشبان بعد العشاء للشاب عايش يستطلعون منه رأي عمي رابح، وما هي تعليماته، وبفارغ الصبر ينظرون من حين إلى آخر تجاه الخيمة التي تحوي في طياتها سر الحوار الذي يدور بين الفارس القديم والفارس الجديد. متى يخرج منها الشاب والشيخ العجوز بنتيجة تبدّد هذا القلق المخيم على الجميع.

لكنّ الشاب عـايش خـرج أخيـرا مسـرعا تجـاه خيمتـه ، لـم يلتفـت إلـى حيـث الشبان بل لم يشر إليهم بالتحية كعادته حين يكون في عجلة من أمره.

- عايش عايش عايش.....

هكذا ناداه أحد الشبان، آملا منه ردّا مطمئنا ولو بالإشارة ..لكن الشاب عـايش لم يعره أي اهتمام..

-VIII-

العرباوي يغني فوق ''المَلوح''

عَيِيتْ مِ الْمَشْيِ وُالجَّيْ وْلاَ مِنْ حَذَا لِي بْخَاطِرْ

جَرَى لِي كِي عَسْكَرْ الْبَيْ عَسَّاسْ بِينْ الْقَنَاطِرْ

ينخز الحمار بعصاه الصغيرة ، يقلب زنبيل الرّمل ، على رأس الكثيب ،هذا المكان المرتفع الذي يُرمى به الرمل بعد أن يملأ في زنبيل يحمل على ظهر الحمار. ذلك المكان الذي يشرف على البيوت الجبسية القليلة في القرية، يسمَّى ''المَلْوَحْ''.

ينظر إلى النخيل شديد الخضرة ، بزهو شديد وهو يتذكر ذلك الشاب الذي لا يعرف شيئا غير التباهي والرقص والغناء والشعر.. أشجارالنخيل المتقاربة بقعة خضراء واسعة مزدانة بسوار ذهبي من الرمال يحيط بها، تزينه منحنيات بنية من سعف النخيل، تشكل منظرا خلاّبًا.. يملأ أصحابه بالفخر والاعتزاز.

كان العرباوي سيكف عن رفع الرمال عن الفسائل الحديثة: فسائل من نوع الغرس ، لأن صبيحة يوم الجمعة ضيّقة . و في هذا اليوم الذهاب إلى سوق المدينة ، وفيه الصلاة الأسبوعية الواجبة جماعيا في المسجد الجامع.

آخر بعرة سينقلها من الحفرة اليمنى إلى اليسرى ، تؤذن بانتهاء خمسين زنبيلا ألزم بها نفسه في صبيحة هذه الجمعة المباركة، لو لم يكن يوم جمعة لألزم نفسه بمائة زنبيل. العدّ ضروري لأن المهمة جدّ شاقة رفع الرمل من أسفل إلى أعلى الكثيب كل يوم .ابتداء من مطلع كل فجر إلى بزوغ الشمس.

عبر المرير الذي يؤدي إلى أسفل الكثيب المحيط بالواحة ،نزل من الناحية الخارجية يسوق الحمار المنهك وراءه ، يمسك بطرف الحبل الذي ينتهي باللجام.

مشهد الغبار من أعلى الكثيب يبدو له ،كأنّه معركة صامتة بين جمع غفير من الناس ، لكن الغبار ينقشع فتبدو مجموعة من الفرسان يمتطون جيادا متقاربة ويثيرون غبارا كثيفا..

ينفصل عنهم أحد الفرسان، متجها إلى بيوت القرية، بينما يتباطأ الركب في السير، ويهدأ الغبار شيئا فشيئا. الرجل الكهل يرتدي جبة أنيقة وبرنوسا ، وعمامته التفت على رأسه بعناية فائقة ، وازدانت بخيوط بنية اللون.

لم يعد العرباوي يرى شيئا بعد ان صار أسفل الكثيب المحيط بالواحة ، لا جماعة الفرسان ، ولا الفارس المنفصل عن الركب ، وتحت تأثير الفضول عاد إلى أعلى الكثيب بعد أن ربط حماره إلى شجرة آزال.

أخذ يخمّن فيما عسى أن يكون هذا الركب الذي يزور القرية في هذا الصباح الباكر، أبطأ الموكب في السّير ، امّا الفارس المنفرد فقد توجه إلى بيت الطالب العروسي المقدم والشيخ المكلف من قبل القايد والجهة الحاكمة في المدينة بنقل انشغالات القرية، لكنهم في حقيقة الأمر لا تهمهم إلا انشغالاتهم أنفسهم ، ولا شك في أنهم جاؤوا لأغراض تشغلهم، ربط العرباوي الحمار وملأ المذود حشفا ، ثم أخذ إناء الماء فملأه من الماجن ووضعه أمام الحمار ، ثم أخذ المنجل وبعض الأدوات التي يأخذها معه في العادة إلى البيت وأخذ يصعد المرير المؤدي إلى أعلى البرنوسة ، ليجد مريرا آخر مقوّسًا ينزل به إلى أسفل الكثيب المحيط بواحة النخيل.

وصل إلى البيت فسمع لغطا ، هناك من يتحدث عن قبيلة أولاد حامد ، ومنهم يتحدث عن رجال القايد أو مَنْ يُسَمّوْن الدوائر وهم حراس القائد وأعوانه، ولم يستطع العرباوي أن يتبين حقيقة الأمر حتى خرج إلى ساحة القرية حيث دكان الحاج العروسي.

- لقد قيّد والدك كل أبنائه وبناته...وحتى أمّك .....علجية...سجلها .!!!
- هاهاهاها ....هاهاهاها...
- وماذا سيفعلون بأمّي علجية.....حتى يقيّدوها....

- وشباب أولاد حامد...؟؟ ما الذي جاء بهم؟؟؟
- ربما جاؤوا ليقيدوا أنفسهم عند القايد...
- العكس رفضوا التسجيل بحجة أن ليس هذا موطنهم وقالوا إنهم راحلون إلى مرابعهم في البادية.. زاروا الحاج الحفناوي زيارة سريعة ثم انطلقوا إلى المدينة يقودهم الشيخ العجوز رابح الشاعر.

هكذا كان اللغط بين السكان البسطاء، عن تسجيل الألقاب والحالة المدنية للسكان بعد أكثر من ستين عاما من صدور القانون الفرنسي سنة 1883 ، فلم يكن المواطنون يملكون الوعي الكافي لفهم ما يدبر له الحكام الفرنسيون، فلم يكن الناس يُعْرَفُون بمعزل عن قبائلهم، وكان النظام القبلي هو النظام السائد للتعرف على هوية الناس، فدمجت السلطات الاستعمارية الناس في سجلات ضخمة دون مراعاة لنسبهم القبلي فقد تجد قبيلتين او اكثر في سجل واحد لا يجمع بينهم إلا كونهم من الأهالي،وهذا الزمام الورقي الضخم. وبما أن الاسم العائلي كان بذكر لقب كثيرا ما كان تنابزيا مستكرها إذ يدلّ على شخص بعينه مثل الأعور والأخوص والعايب والعقون...الخ، وربما دلّ على معنى أكثر استكراها كالبهيم والبغل والقرد والخرء....الخ، فجعلته السلطات دالا على العائلة كلها، ولما كانت ألقاب الناس تتشابه فقد تفرقت عائلات بين سجلات عديدة، وجمعت عائلات لا توجد بينها أواصر قرابة في سجل واحد فأصبحوا ينتمون إلى لقب عائلي واحد، وهكذا حدثت القطيعة بين الموروث النسبي والتواصلي لهوية المواطن، وبين النظام الجديد الذي لا يستند إلى أي مستند إلا تسجيل الناس ومنحهم هوية تمزق النظام القديم.

وعلى الرغم من أنّ الاهالي لم يكونوا يدركون الأبعاد الخفية لعملية التقييد في دفاتر الحالة المدنية، ومنح وثائق هوية غالبا ما كانت تشويها للهوية الأصلية للفرد، فشكوكهم في كل ما تقوم به السلطات الاستعمارية، ومحاولة تأويله تأويلا سلبيا، جعل تساؤلات العرباوي وحواره مع العروسي يصب في قالب قريب جدا من القالب الحقيقي للعملية.

وفعلا فلم يكن مرور رجال أولاد حامد علامة فارقة في هذه الصبيحة التي تميّزت بمرور رجال القايد ...فالكل يتخوّف من التجنيد، ويحبذ أن يبقى حرًّا طليقا كشباب أولاد حامد...فيقال إن كثيرا من الشبان جندتهم السلطة قبل أكثر من عشرين عاما ولبسوا البرنيطة ومضوا طمعا في رزق يسير لكنهم لم يعودوا إنما وصل نعيهم، وورقة من الجيش الفرنساوي إلى والديهم مرفقة بفرنك ونصف الفرنك....

ومع ذلك فقد ضرب وفد أولاد حامد موعدا للحاج الحفناوي في ذلك الصباح الباكر، بان يعودوا بعد صلاة الجمعة، فالحاج سيستقبل رجال القايد ثم ينصرف إلى سوق المدينة.

- ليتني كنت شابا من شباب أولاد حامد، إذ ينفذون بسهولة أكبر من أوامر القايد وأسياده من الضباط الفرنسيس، إنهم هذه المرّة يسألون كل شخص عن أعداد أفراد الأسرة وأسمائهم وأعمارهم واحدا واحدا حتى الأطفال الصغار، ويسجلونهم في دفتر كبير الحجم، هل يرغبون في تجنيد كل هؤلاء الناس حتى النساء والأطفال؟؟ غالب الظن أن الأمر يتعلق بأخذ غرامة عن كل فرد ، فمن غير المعقول تجنيد الأطفال والشيوخ والنساء.

هكذا كان العرباوي يسائل نفسه حين علم أن رجال القائد كان معهم طالب وضابط فرنسي، كل منهم يحمل دفترا ضخما ويسألون عن أسماء الناس ويكتبونها. لماذا لا يسجلون أولاد حامد، تملكته الغيرة والحسد والحقد ومشاعر أخرى كثيرة لم يعرف كنهها.

لابد أن يسأل الشيخ العروسي صاحب الدكان الوحيد في القرية، ماذا يريد الروامى بهذه التسجيلات، وما سبب مرور الشيخ رابح الشاعر، وشبان أولاد حامد بالحاج الحفناوي؟

- إن الرجل من غير وثائق تثبت هويته، كالبعير بلا وسم.

– لكن البعير لا ينطق فينطق عنه الوسم، أما الرجل فله لسان يفصح عن شخصه وانتمائه، غير أن هؤلاء الروامى لا يسجلون الرجال فحسب إنما يسجلون النساء والذرية.

– الذرية يكبرون يا عرباوي والنساء أيضا ينجبن الرجال، والرجل ينسب إلى أمّه وأبيه، لا إلى أبيه فحسب.

– فلم يقيدون أسماء آبائنا وأجدادنا الذين ماتوا منذ أمد بعيد؟ الأمر غير ما تقول يا عمي العروسي، هذه قيود يقيدوننا بها ليمسكوا بنا، نحن في قبضتهم منذ أمد بعيد واليوم يشدّدون هذه القبضة لنكون في وثائقهم وأزمَّتِهم.

– نحن نراها قيودا تحفظ الحقوق، ماذا لو ذهبت إلى المدينة ولم تكن لديك وثيقة تدلّ عليك، ثم بحثوا عن لصّ واشتبهوا فيك، فكيف تثبت أنك أنت العرباوي وليس اللص المبحوث عنه؟.

– أمر نادر الحدوث، ومع ذلك يمكن أن أدعو من يعرفني من الناس ليشهد أنني العرباوي، لكن السبب الحقيقي ليس حفظ الحقوق إنما إملاء الواجبات.

– لِمَ امتنع نجع أولاد حامد من تقييد أنفسهم، وما سبب زيارتهم للحاج الحفناوي هذا الصباح؟

– هم بدو رحل على أية حال، لا يستقرون على قرار، ليس لهم أرض ينتسبون إليها، فهم بعد شهر او أكثر أو أقل في موضع آخر.

– إنهم أحرار في بلادهم يتنقلون حيث يريدون، وحيث تدعوهم الخصوبة، ولا يرضون بالقيود التي يفرضها الروامى علينا.

– بل لأنهم لا يمتلكون الأرض، لذا عافهم الروامى، أما نحن فنمتلك الأرض ونزرعها وتستخرج منها قوت يومنا، لذا يريدون تقييدنا.

– اللّه ينوّر عليك يا عمّي العروسي، لأن همّهم الأوّل والأخير الأرض، لا الإنسان الذي يعيش عليها.....السلام عليكم.

خرج العرباوي من دكان الشيخ العروسي، وهو يفكر في الأمر تفكيرا جدّيا، هل التجنيد هو السبب؟ يقول لنا كبار السن أن الفرنسيس جندوا شبانا قبل عشرين عاما دون حاجة إلى تسجيلهم، ساقوهم كالإبل وعلموهم كيف يطلقون النار من البنادق التي أعاروهم إياها ريثما تنتهي حرب الروامى فيما بينهم ثم استرّدوها. تذكر جماعة أولاد حامد ومرورهم هذا الصباح بالحاج الحفناوي، نسي أن يسأل في ذلك الشيخ العروسي علّه يفيده بشيء، هل هناك علاقة بين مرور القايد وأعوان الروامى وبين مرور أولاد حامد، الأمر يثير الفضول فعلا.

توجه العرباوي إلى البيت ليصيب كأسا من الشاي في هذا الصباح الباكر، اقترب من مدخل الردهة الواسعة، فسمع جلبة وأصواتا مختلطة، والده وعمه ووالدته وأحد إخوته كل يحاول أن يدلي بدلوه في الحديث الذي يبدو هامّا على الأقل بسبب حدّة النقاش..

- العرباوي جدّ صالح وهم يسمونه صالح العرباوي.
- بل أبوه صالح بن العرباوي ثم اختصرت إلى صالح العرباوي..
- والعرباوي هو اسم الجد الأول ومن هو أبوه؟
- أبوه كان يسَمّى محمد. لكنهم توقفوا عند العرباوي وفي الحقيقة العرباوي اسمه الحقيقي هو العربي، بدليل ان عمي العربي أخذ اسمه.
- فلماذا سميت ابنك العرباوي إذن؟؟
- بل سميته العربي لكنه غلبت عليه (الكنية).
- السلام عليكم!!!!
- وعليكم السلام.
- أنتم تتحدثون عنّي في غيابي، هل ثمة أمر يخصّني، اسمي هو العربي وليس العرباوي أليس كذلك؟؟
- من الان فصاعدا سيصبح اسمك العرباوي العربي.
- لم أفهم شيئا؟؟!!

- أعوان الروامى جاؤوا يسجلوننا في دفاتر الأحوال الشخصية ويعطوننا ألقابا هي ألقاب أجدادنا.

- لماذا يتعبون أنفسهم بالبحث عن ألقاب أجدادنا نحن عرش الصواعدة، أنا معروف بالعرباوي ولد لخضر بن صالح الصواعدي، ألا يكفي هذا؟؟.

- أثبتوا العروش في الزمام لكنهم قسموا العرش نفسه إلى عدة ألقاب كل مجموعة من الإخوة يأخذون لقبا مشتركا.

- الحاج الحفناوي من الصواعدة أيضا لكن اللقب الذي يأخذه مختلف.

- لماذا يقسمون الناس؟ آه بدأت أفهم شيئا آخر..حتى تضمحل أواصر القرابة بين أبناء القبيلة الواحدة، نحن وعمي العربي وعمي علي نأخذ لقب العرباوي، أما بقية الصواعدة فيأخذون ألقابا أخرى. فمن يعرف أننا جميعا أبناء عمومة ننتمي إلى الصواعدة بعد أن يصبح الفرد معرفا بلقبه لا بقبيلته. والحفناوي وأخوه العيد يعرفون بأي لقب؟

- جده معروف باسم حمه البغلي.لا بد ان يكونوا اخذوا لقب البغلي.

- لم لا يأخذ لقب حمه ؟

- الرومي لا يسأل عن الاسم الحقيقي للجدّ إنما يبحث عن (الصير نونsurnom) هذه هي الكلمة التي يستعملها الرومي عدّة مرات ،والقائد يسأل عن اللكّاعة .

- لماذا اللكّاعة بالذات؟ ألا يمكن ان يسمى اسما مستحبا، اللكاعة غالبا غير مستحبة؟؟

- من حسن حظنا أن جدنا يحمل لكّاعة مقبولة.

- مجتمعنا يميل إلى الغض من شان الآخر، فنادرا ما تجد شخصا لا يحمل لقبا يلمزه والراومى لا يتركون فينا هذه الخصلة الذميمة حتى يستغلوها أبشع استغلال.

- ليرى الإنسان في اسمه العائلي نقصا ما. الغض من شان سكان الأرض، فهم يمتلكون الأرض ويستعبدون أهلها غرضهم أن نرى أنفسنا بنظرة دونية تجاههم.

**********.

-IX-

عاد وفد أولاد حامد من سوق المدينة ظهيرة الجمعة، محمّلين بما يحتاجون إليه من زيت وسكر وشاي وغير ذلك من الضرورات اليومية ،وقد اقترب موعد صلاة الجمعة ، فقرروا أن يتوقفوا في الخبنة ،لأداء الصلاة الأسبوعية وزيارة الحاج الحفناوي.

تبدو القرية خالية تماما في هذه الظهيرة القائظة ،لابد من التوقف عند الجامع وترك خيولهم بعيدا ...وإرسال أحدهم بالبضاعة إلى الربع : في "باغام". أصرّ عايش أن يكون هو من يكمل المسيرة إلى النجع ، ولا يدري بالضبط لم غلبه هذا الإحساس بعدم الرغبة في مقابلة الحاج الحفناوي.

هل كان ذلك خوفا من الاصطدام به ،أو كان شفقة على نفسه من مواجهة الرفض الحاسم لهذا الرجل ، مع أنه يتوقع ذلك ، والخيبة متوقعة بل أكيدة ،فلم يتجرع كأسها مرة بعد مرة؟ كان يفكر وهو في طريقه إلى باغام ، هل ترى ستمانع لو انفرد بها في جنح الليل ودعاها إلى الهروب معه ، كما فعلت الصابرية ،مع العم رابح منذ أكثر من خمسين عاما؟ أم ربما ستصرخ وتثير النائمين وعندها تكون العاقبة وخيمة.

- وخيمة ؟؟!!! لماذا وخيمة؟؟ ما الذي سيحدث اكثر من الموت؟؟؟

هكذا استدرك على نفسه بصوت مسموع وهو وينساق وراء تداعياته...الموت ليس مشكلا ..المشكل الكبير ،هو أن يتخيل حبيبته فجرة بين أحضان العرباوي ..هذا المسخ الذي يشبه... إنسانا!!! كم أصبح يمقت ذلك المخلوق!!!! ولكن الأدهى من ذلك كيف تتصور هي وكيف تفكر هي في حبيبها عايش هل ستمقته ، وهو النذل الذي ظل متفرجا.. لأنه لم يهبّ لنجدتها وإنقاذها من هذا المصير المهين...

لم لا يتصور الجانب الآخر ، وهو انها بمجرد ان خطبها العرباوي رضيت بالأمر ونسيت عايش، واستعراضاته ورجولته وكل ما يرتبط بالفرح والرقص والغناء وإطلاق البارود..

إغراءات الزواج من العرباوي، الاستقرار في قريتها ، وبين أهلها ، في عيش ناعم هادئ ليس فيه حِل وترحال ولا فقر ولا عوز.. ربما أهل القرية يفكرون تفكيرا نفعيا مصلحيًّا ، ربما لا يأبهون بالمظاهر والقيم كالشهامة والبطولة والمروءة وقد تعتبر الأمر طبيعيا. ولا بالقيم الجمالية كالأناقة وحسن الأداء والتصرف، أليس كل ما يتقنه لا يساوي شيئا أمام غائلة الجوع التي تهدد البدو من حين إلى حين.

ماذا يحسن عايش غير الرقص والغناء، هل هذا مبرر كاف لأن تربط فتاة بذلك الجمال الباهر، مصيرها به؟؟؟ لو نسيته فجرة فلن يلومها ، أمّا هو فقد عشقها عشقا لا يستطيع الإفلات من غلوائه.

أخذ عايش يفكر في حلّ ينهي هذه الأزمة النفسية التي تفتّ في عضده ، وتؤرقه وتحمّله عبئا ثقيلا.. ماذا لو حاول جس نبض فجرة؟ هل تقبل الارتباط به بغض النظر عن قبول أهلها أو رفضهم ، هل تستجيب للمغامرة لو أقدم عليها؟؟ لا شك في أنّ كل الأمارات السابقة تدل على ذلك ، لكن هل الأمارات من الجدّية الكافية لأن تعرض فتاة نفسها للقيل والقال؟ وتفضح أباها وأهلها وتعرض نفسها وحبيبها للخطر؟؟

الحيلة أن يرسل امرأة من بنات القبيلة إلى فجرة، ويستطلع رأيها في الموضوع، هل تتحمل معه مغامرة مكلفة إلى الحدّ الأقصى ، أم أن تجاوبها معه إبّان حفلات العرس لم يكن أكثر من لعبة تسلية؟ من هي المرأة الجريئة التي تختلق حجة وتسير إلى القرية وتقابل فجره وتسألها رأيها أو تجس نبضها.

لم يكن الناس قديما يقيمون وزنا للفتاة ، فقد كانت تؤخذ عنوة من مرابع قومها ، وتعشق من كانت له الشجاعة وروح المخاطرة من أجل عيونها ، وعندئذ تحبه حبّا يملأ عليها حياتها ولا ترضى عنه بديلا. وغالبا ما تنسى قومها

الأصليين وربما أهلها ويصبح أب زوجها أباها وحماتها أمها الحقيقية وتتجدد حياتها مع أهلها الجدد. وسواء خطفت عنوة أو زوجت عن تراض فالأمر سواء.

وها هو عايش يفكر ألف مرّة قبل أن يقدم على فعلته، بل يشرك معه النساء، ألم تتلاش الرجولة والشهامة التي يشيد بها عمي رابح ويزعم أن البدو هم أهلها الحقيقيون، فعلا لقد ولّى زمنها. ألم يصبح للنساء نصيب من تلك الشهامة الزائلة؟

وصل عايش إلى مرابع القبيلة ، وكله خيبة، لا يطيق أن يكلمه أحد... الذبابة على وجهه كأنها جمل.. دخل خيمته ..أحضرت إليه شقيقته عيشة الغداء، لقمة من كسرة محشوة ببعض البصل والطماطم والفلفل والشحوم وجبة دسمة بالنسبة لأمثاله من البدو ..لكن أنى له بشهية الأكل؟

هل يبدأ في تنفيذ الخطة؟ أم ينتظر ما تسفر عنه زيارة رجال القبيلة؟

شقيقته عيشة، جريئة وذكية ، لا حظت منه شروده، وهي تقدم له الغداء، فضلت السكوت حتى لا تزيد من إزعاجه ، وهي بطبيعة الحال تدرك ما يعانيه شقيقها ، وربما ما يفكر فيه، فلم يعد سرّا، أمر قصته مع فجرة، كما لم يعد سرّا صعوبة إن لم تكن استحالة تحقيق حلم الشابين العشيقين في مجتمع مظلم لا يعبد إلا إلها مزيفا باليا يسمى الأعراف الاجتماعية الرثة.

اوشكت عيشة ان تختفي وراء خباء الخيمة، رفع عايش رأسه هاتفا:

-عيشة!!!..

عادت عيشة وظهرت من وراء الخباء ، وسألت اخاها:

- هل ناديتني ؟

- أبدا ...فقط لأسألك متى ذهبت إلى الخبنة آخر مرة ؟

- أمس ، بسبب العرس طبعا..هل يمكن ان تنسى بسرعة؟

- أبدا ...اقصد قبل العرس...لغرض آخر غير العرس...

أدركت عيشة بذكائها الحادّ ما يرمي إليه أخوها، توقفت عند مدخل الخيمة والتفتت إلى شقيقها ثم قالت:

- المناسبات كثيرة لزيارة القرية وحتى إن لم تكن هناك أسباب نختلقها اختلاقا ، فهل لديك رسالة معينة تريد إبلاغها إلى لخبنة؟ أحيانا نأخذ أحد الأطفال إلى الطالب الحسين من أجل الرقية ،أو نبارك لإحدى النساء مولودها الجديد، وأحيانا نأخذ كمية من الجبن إلى العجوز حدّة ، فهي كثيرا ما ترسل إلينا ببعض الهدايا ، ونحن نعلم أنها تشتهي الجبن الطريّ .

- اعتزمي زيارة الخبنة بعد يوم أو يومين على الأكثر، ثم اخبريني بالموعد والرفيقات.. ودعي الأمر بيننا.

همّت عيشة بالخروج، أما عايش فقد اخذ يفكر بينه وبين نفسه ، لم يعد الرجل قادرا على القيام بشؤونه بنفسه كما كان أجدادنا يفعلون قبل عقود من الزمن، وهكذا صرنا نعتمد على المرأة أيضا حتى في شؤوننا الخاصّة. أبصرت عيشة الموكب يثير الغبار عند الأطراف البعيدة للنجع ،فعادت إلى شقيقها ، تخبره بوصول الركب، يبدو أن القوم عادوا بالخيبة كما كان متوقعا، فهم يسيرون متفرقين وكل يتجه إلى خيمته.

جلس عايش بعد ساعة من وصول النجع ، في خيمة عمي رابح ، الذي كان منهكا من جراء الرحلة الطويلة إلى المدينة ومنها إلى القرية ومن القرية إلى النجع، كان عايش ينتظر من عمّي رابح أن يبادر بالحديث عمّا حدث في القرية مع الحاج الحفناوي، لكن رابح أحجم عن الحديث في هذا الموضوع.

- ربما تعرف يا عايش أن رجال القايد قد زاروا القرية، لكنك لا تعلم المهمة التي جاؤوا من أجلها..

لم يكن عايش ينتظر أن يتحدث عمي رابح عن رجال القايد وما جاؤوا من أجله، لذلك طأطأ رأسه، ولم ينبس ببنت شفة، كان يبدو متذمرا من هذا الأمر الذي لا يعنيه في شيء كثير أو قليل. وشعر عايش كأنّ عمّي رابح يتملص من الحديث في همومه التي تقضّ مضجعه، وتجعل التمر في فمه مرّا علقما.

سكت رابح قليلا ثم أضاف:

– لم يعد الحاج الحفناوي وقومه يفْضلوننا بشيء، بل صاروا يتمنون أن لو كانوا بدوا مثلنا، ولم يمتلكوا نخيلا ولا أرضا، بل العرباوي نفسه يفكر في ان ينتسب إلى نجع أولاد حامد، ويتمرّد على قبيلته وقريته وواحة والده، بعد أن وضعت السلطات الفرنساوية الحبال في قدميه.

رفع عايش رأسه، لما بدا له أن الأمر مختلف بعض الشيء عما كان يفكر فيه، ثم قال:

– أكل هذا من اجل انهم قيدوا اسمه في زمام؟؟

– ألا تعرف ما معنى ان يقيدوا اسمه في زمام القايد وزمام الحكومة الفرنساوية؟ لقد أصبحوا يتحكمون في حركاته وسكناته، لقد أصبحوا يخضعونه اكثر من ذي قبل ، لقد وعى العرباوي، الذي كنا نحسبه أبله، ذلك فأحسن الوعي.

– العرباوي ككل أهل المدينة، اللؤم في طبعهم ولا يأبهون بالكرامة، الفتاة تعلن للقاصي والداني أنها لا تريده، وهو مصرّ على الزواج منها رغم إرادتها.

– الموضوع فيه حرج كبير، والعرباوي غير موافق من حيث المبدأ، لكن الضغط الشديد من قبل الوالدين يجعله يتريث قبل أن يعلن الرفض القاطع لهذه الزيجة، فقد حدثته في الأمر، ولمست تفهّمه. لكن الأمر بيد الكبار. ولا سيما الحاج الحفناوي. فهو الآمر الناهي حتى لأبناء الآخرين فما بالك بالأمر إذا تعلق بابنته شخصيا.

– الحل الثوري دائما بأيدي الشباب، وهو ما سيحصل بإذن اللّه..

أدرك العم رابح ما يلمح إليه الشاب عايش، فتذكر الحديث الذي دار بين شيوخ القبيلة وهم عائدون من القرية عصر الجمعة،وما دام يعرف جيدا شجاعة عايش،وتعلقه الشديد بفجرة التي لا يعتبرها مجرد فتاة جميلة بادلته مشاعر المودة على مرأى ومسمع من الناس.إنما الأمر مسألة كرامة وشهامة، فلا يليق

به أن يكون نذلا، فالتخلي عن فجرة هو أسوأ أنواع النذالة. ومع أن العم رابح يعذر الشاب في هذا التفكير، إلا أنه أطرق قليلا ثم قال له:

– حذار التسرع والتهور يا عايش، فجرة ستكون من نصيبك بحول اللّه، وأنا ضامن لك ذلك، نحن نقوم بمحاولاتنا على أكثر من جبهة، نحاول إقناع الحفناوي، ونحاول إقناع العرباوي، ونحاول التوسط بالشيخ الحسين، وحين نرى ان الأمر أخذ بالإفلات من أيدينا، فأنا أوّل من يحثك على القيام بالعمل الذي سبقتك إليه قبل خمسين سنة.

****

-X-

الحمار يسير ببطء بين الكثبان، يحمل عيشة، يتبعه الطفل علال ذو العشر سنوات ممسكا بالذيل تارة وبالذناب تارة أخرى، والخرج يتدلّى على جانبي الحمار به كمية من الصوف المندوف وعكك من السمن، إنها هدية من أمّها حِدِّي والدة عايش وزوجة عمارة اللباد إلى زوجة الطالب الحسين التي يبدو أنّها تقيم حفلة لختان حفيدها هذه الأيام أوائل ربيع الأول شهر المولد، دعت إليها بعض نساء القرية، حتى أن الخبر وصل إلى ربع أولاد حامد في منطقة باغام،غير أن لذهاب عيشة إلى القرية، غرضا آخر تماما.

علال ينخز الحمار بعصا حادّة ليستحثه على السّير، يسير حينا في منحدر من الرمال تتشبث عيشة بالبردعة خشية السقوط من رقبته، وحينا آخر يتلكأ بالمرتفعات فتتشبث عيشة بالذناب خشية السقوط خلف ذيله، وهي تصرخ بين ضحك وغضب زاجرة علال عن نخز الحمار، فيضحك علال بصوت عال ممازحا خالته عيشة،وهو يقول:

- لماذا كل هذا التعب ؟ أمن اجل طهور طفل صغير.
- بل من أجل طهور الطفل الكبير.

لكن علال لا يفهم قصدها فتضحك بصوت عال، فيحتج عليها قائلا:

- إن الطفل سواء صغيرا أو كبيرا فهو سيتعرض للجرح لا محالة سيجرح لأنه لم يختتن حين كان صغيرا. فتقول ملمّحة إلى عايش دون أن يفهم الطفل عنها شيئا:

- حاشاه... عدوه هو الذي يتعرض للجرح.

وتضحك مرة أخرى بصوت عال وهي تقول للطفل علال الذي تعرف أنه لن يفهم قصدها:

- الدم لا بُدّ أن يسيل في كل الأحوال من كل الناس، لكن الذي يسيل في وقت مبكر غير الذي يسيل في وقت متأخر.
- أبدا ...ليس كل الناس ...البنات لا يُطَهَّرن.
- بل يطهرن....ولكن عندما يتزوجن...
- يطهرن أولادهن...يطهرن بعد ان يلدن أولادا ذكورا..
- البنت لا تحتاج إلى طهارة لأنها تولد طاهرة.
- بل لأنها ليس عندها "شَلاَّلَة[1]".
- أسكت يا ولد عيب..!!!!.
- لا بد أن يسيل الدم، في كل الأحوال ...ومع ذلك، لابد لسيلان الدم من الزغاريد.
- فلماذا لا يزغردن عند ذبح كبش العيد؟
- المسكين ....ببساطة لأنه كبش!!!

ثم تطلق ضحكة رنانة ،فينهاها قائلا:

- خفضي من صوتك خشية أن تسمعنا كلاب مزارع القرية فنحن نقترب من الخبنة، وهكذا كان طريق الطفل علال وخالته عيشة والحمار، بين باغام وقرية الخبنة، في شدٍّ وجذب حتى وصلا مداخل القرية.

غمرت الشمس كثبان ومزارع وبيوت القرية المتناثرة، ومع ذلك فالساحات تبدو خالية تماما إلا من بضع شويهات الماعز تتشمم الأرض علها تجد ما يمكن أن يمضغ، أو تتحكك على الجدران الجبسية، وكلما اقترب الحمار بمن فوقه ومن خلفه،وصل صوت الضجيج. يبدو أن الاحتفال برفع الراية يتم في هذا الصباح وعادة ما تقوم العجائز المسنّات بالإشراف على هذا الاحتفال، الراية وهي العصا الطويلة التي يربط في طرفها الخيطان الأبيض والأحمر وأحيانا الأخضر، تكاد

[1] - تطلق هذه اللفظة على عضو الذكورة، ويمكن ذكرها في حضور الكبار دون حرج.

تكون الراية الوطنية لو كانت نساء الخبنة والنخلة يعرفن مصالي الحاج لقلنا إنهن اقتبسنها من رايته الوطنية التي ستعتمد في المستقبل.

الأصوات المتثاقلة الجماعية تتمايل بلحن واحد:

هَذَا النَّهَارْ لِمْبَارَكْ وْلآخَرْ سِعِيدْ

وُالِّلي حَضَرْ مُحَمَّدْ وْسِيدِي عْبِيدْ.

هَذَا النَّهَارْ لِمْبَارَكْ يَا مُومِنِينْ

السَّيَّدْ عَلِيّْ وَأَوْلاَدَهْ لِفَوْ فَارْعِينْ....

أورورورورورورورورورورورى!!!!!!!

الزغاريد أنشط بكثير من الترنّمات الغنائية المتثاقلة، ربما لأن المزغردات نساء في مقتبل العمر، ولا يحفظن الأغاني، بينما المغنيات يكنّ غالبا من العجائز، لذا قد تجد نشازا لحنيا فكأنما الأغاني على مقام الصبا والزغاريد على السيكا.

نزلت عيشة من على الحمار، وأخرجت كل ما في الخرج من صوف. وعكك سمن عبارة عن هدايا البدو إلى سودة وهنية وبوكة، العجائز اللاتي تكنّ لهن احتراما. ممزوجا بالتملق والمصلحة المتبادلة. ثم صرفت علال ليتدبّر مربطا للحمار ويستريح في مضافة القرية ريثما يعود في المساء إلى "باغام" يذهب إلى الطالب حسين وابنه والد الطفل العريس الصغير، وهما صاحبا الفرح مهنئا وناقلا تهنئة والده، ولابد أنّ الطالب سيكون كريما ويدعوه إلى الغداء الذي لا شك سيكون دسما بمعيار البداوة، أي انه لا يخلو من لحم وخضار وفاكهة ومن ثمَّ يأوي إلى المضافة وهي خيمة في الغالب أعدت لهذا الغرض، حيث تتاح له الفرصة ليستمع إلى الضيوف وهم عادة من كبار السن يخوضون في شؤون مختلفة غالبا ما تكون مستمدة من تاريخهم الشخصي يبدؤونها بعبارة: هـــــــا.....السنين..بتمديد الهاء تمديدا مبالغا فيه للدلالة على بعد الهوة الزمنية للحوادث المسرودة والتي غالبا ما يكون بطلها المتكلم نفسه..

بعد أن سلّمت عيشة على صاحبات الفرح، حدّة زوجة الطالب وزهرة أم الطفل وبنات سودة: حورية وسالمة ومباركة، واتخذت لها موضعا بين المغنيات، تارة بإيقاع الطبل وتارة أخرى بالترنم، ونساء البدو يحفظن الأغاني أكثر من نساء القرى، كما أنّ أصواتهن بها حدّة تمزق صمت البادية.

كانت عيشة تنتبه بين الحين والآخر وتتفرس في وجوه الحاضرات علها تعثر على (فجرة) أو على (باكي) كما تعرف بين نساء قرية الخبنة وفتياتها، لكن عينيها ترتد إليها بالخيبة، وكلما مرّ الوقت ازداد قلقلها فهي لا تستطيع أن تمكث إلى الغد، ولا أنْ تنجز المهمة قبل المساء فالذهاب في الليل فيه شبهة للفتاة البدوية؛ فلو كانت مع رجل بالغ من محارمها لكان ذلك أمرًا لا غبار عليه، أمّا مع الطفل اليافع علال فالأمر لا يخلو من تساؤلات مريبة: كيف تجرؤين على "السفر" بمفردك لا يؤنسك إلا طفل صغير، على الرغم من أن الجميع يدرك أن الطريق قصيرة لا تتجاوز ميلين او ثلاثة كيلومترات، و خالية من المخاطر، فنجع "باغام" قريب والمشاة بين الخبنة والنجع البدوي كلهم معروفون، يعرف بعضهم بعضا ويحرص بعضهم على سلامة البعض، لا سيما حين يتعلق الأمر بالنساء، فهن العرض والشرف الذي تراق على جوانبه الدماء.

الصورة التي انطبعت في ذهن عيشة عن باكي، هي التي ضللتها فلم تدرك إلا أنها تلك الفتاة الجميلة التي تلبس الحرام الجميل وتسدل شعرها الناعم والأسود الفاحم الذي يكاد يصل إلى أردافها ، وتتزين بالخلال قلادة لمّاعة على صدرها الغض، ولكن ليس اللباس الأنيق وحده ما يميز باكي إنما نشاطها وحيويتها واستجابتها السريعة لكل تعليق من هنا أو من هناك، وتتجاوب مع المنشدات الأراجيز بالضرب على الطبول أو بترديد اللازمة، تلك هي الصورة التي كانت منطبعة في ذهن عيشة عن عشيقة شقيقها عايش، لكن خيبة أملها كانت كبيرة، فعيشة انتبهت إلى وجود شابة تلبس فستانا قديما وتهمل شعرها وتلفه بلثام وتقبع بعيدا عن الجلبة والصياح والأراجيز واللغط الدائر بين الفتيات، فهي تسحب الماء من البئر وتفرغه في الأواني من قلال وقرب وأوان

مفتوحة وتنتظر أن تستفرغ لتعود في انتظار ان تسحب مزيدا من المياه في البئر، ومن دون كلام إنما تلتزم الصمت الرهيب.

لم هذه العزلة التي فرضت على "باكي" والعمل الشاق: سحب المياه من البئر؟ اقتربت عيشة بعد أن تعرفت على باكي بعد لأي شديد، سلمت عليها،وقالت:

- أنت باكي بنت الحاج الحفناوي؟؟

لم تكن باكي قد تعرفت على عيشة من قبل، فأجابتها في تذمّر شديد:

- نعم يا اختي أنا هي "الكرفوصة" بنت "الكرفوص"....ثم التفتت إلى البئر من جديد...

- اسمحي لي يا أوخيّتي إن كنت أزعجتك فأنا جئتك برسالة من شخص يفنى في حبك، ولا بد لي من وقت نتحدث في الرسالة بعيدا عن ضجة الفرح والطهور.

وجوم ....من باكي حين ذكرعندها الحب والفناء في المحبوب، فهي أيضا تفنى وتتمنى الموت عاجلا قبل أن تزف إلى العرباوي، وتحرم من حضن حبيبها عايش الشاب البدوي صاحب القنار المائل. إنها تتمنى الموت حقا، لقد ساءت حالتها وفضلت العزلة والانطواء، لم تعد تستسيغ الطعام والشراب إلا على كره، منذ أن ألقت أمها سودة في روعها تلك الكلمة التي كانت بمثابة الصاعقة التي زلزلت كيانها وجعلتها أقرب إلى الشبح المشلول عن التفكير وعن فعل أي شيء:

- لقد كتب القلم وجفّ ...العرباوي عريسك وزوجك في المستقبل القريب، وطّني نفسك على هذا الأمر، وانسي كل وساوس الشياطين، والمكتوب ما منه هروب.. يا بنيتي.

منذ أن ألقيت في روعها تلك الكلمة الصاعقة وهي تشعر أنّها عبارة عن شبح، تفكر في حبيبها كيف يكون حاله لو زفت فعلا إلى العرباوي؟ هل يتجاهل الأمر تماما ويبحث له عن فتاة جميلة أخرى يستعرض فحولته وأناقته أمامها ويبادلها الابتسام ويفرغ على رأسها زجاجة العطر؟ ترى هل رجال البادية مثل

أبيها قلب جاف يشبه الكرناف لا يعرف النبض بالحب، ولا يعترف بالقلوب وميولها. أم ترى أن اناقته ووسامته تنبئ عن قلب مليء بالحب ميال إلى الوفاء والشهامة؟

– عايش يبلغك السلام، ويبلغك انه يعتزم أن يقوم بالعمل الذي يقوم به المحبون حين يصطدمون بتحجّر الأهل، غير أنّه يخشى أن ذلك العمل لا يلقى منك القبول والاستجابة، فيكون كمن دخل مفازة غير آمنة من دون سلاح.

– قدرنا أن ننتظر الرجال ان يبادروا كأننا حيوانات أليفة معدة للذبح، أو تساق إلى السوق... متى تأخذ النساء زمام المبادرة. ما اسمك يا....أخت عايش؟؟

– عيشة....يا أوخيّتي واللّه لا يذوق الطعام..ولا طعم النوم وهو مهموم ...يعيش تحت ضغط رجال القبيلة.

– اللّه يبارك أنت عيشة وأخوك عايش؟؟؟؟

– لم يكن الأطفال يعيشون لوالدتي بسبب ظروف البادية القاسية فكانت كلما ولدت مات وليدها بعد أقل من سنة فكانت تتفاءل بأسماء مثل عايش عيشة عياش....وتظن أن الطفل يعيش حين يسمى عايش أو عيشة.

وهاكم عشتم والحمد للّه..واللّه يا عيشة أختي أنا أتمنى أن أموت قبل أن أزف للعرباوي..فكرت فيما لو لم يبادر عايش فأنا التي سأبادر..وربما سأكون ابتدعت للعرب بدعة جديدة لم تكن في الحسبان.

– حذار يا فجرة!!!!....ستكون فضيحة مدوية لأخي عايش...قبل أن تكون بدعة .

– فجرة !!!!؟؟؟؟...

هكذا تساءلت فجرة في دهشة، وحماسة حين تذكرت الأغاني التي يتردد فيها هذا الاسم، أغاني حبيبها عايش في حفلات العرس.

– عايش يسميك فجرة وقد جاريناه في هذا الاسم...حذار ...أن تفعليها ..إذا لم تفلح محاولات ثني العرباوي عن عزمه، او إقناع الحاج الحفناوي بعدم جدوى

السعي في سبيل زواجك من العرباوي فأخي عايش مستعد أن يخوض المغامرة ولو ضحى بعلاقتنا الطيبة مع القرية وأهلها الطيبين أو حتى لو كلّفته حياته.

– سأعلن أن اسمي أصبح منذ الان فجرة .....العرباوي من الذين يقولون شيئا ويفعلون عكسه لا يرجى منه شيء لو كانت له همة رجال الأزمان الغابرة لفهم الأمر منذ الليلة الاحتفال الأولى بعرس أخي عامر...

– لم تحدد عمتي موعد الزواج بعد، ومع ذلك فقد أقفل الموضوع تماما وأصبح مفروغا منه بالنسبة للعائلتين ، ولم يبق إلا أمل الإنقاذ بنفحة من نفحات البطولة التي أعرف أن عصرها قد انقضى، أو أمل الموت المخلّص.

– لم ينقض عصرها بعد وسوف انقل لأخي عايش هذا الكلام ويثبت لك أن النفحات لا تزال موجودة بقوة. فقد كان يخشى أن يكون الفعل رغما عن إرادتك.

– لم يكن الرجال يعبئون بإرادة المرأة الشابة في هذا الأمر بالذات، وها هو والدي الحاج الحفناوي واحد منهم.

– أنا أحرص على ورود البئر مع الفتيات عصر كل يوم تقريبا، ومستعدة ان أذهب مع حبيبي إلى جهنم.

أحست عيشة في نبرة حزينة ورقيقة وغُنَّة أقرب إلى البكاء منها إلى الإفصاح. فقالت لها بنبرة حماسية :

– لا تخشي شيئا سيحملك معه إلى الجنة، جنة العاشقين، ليتني أجد من يعشقني عشق عايش لفجرة.

ملأت فجرة الأواني، وعلقت الدلو على البكرة، ثم اتجهت إلى حيث النساء والفتيات متجمعات فقالت لها إحداهن:

– تعالي يا باكي.. خذي هذه القلة واملئيها نريد أن ننقلها لخيمة الرجال ....

فردت عليها فجرة – مقاطعة- بانفعال شديد، كأنما تتبرأ من اسمها القديم وسيرتها القديمة لتصنع لنفسها شخصية جديدة وتعلن تمردها على القيم القروية وأعرافها البالية:

- أنا لست باكي...أنا فجرة.. سمعت أم لا....شئتم ام أبيتم أنا فجرة!!!!!!..

لم تعد إلى البئر ولم تتناول القلة ولم تملأ الماء إنما اتجهت إلى مجموعة النساء في باحة البيت ، فاعترضتها المرأة المتميزة طمطمه.

طمطمة هذه ليست امرأة بمعنى الكلمة وليست رجلا، إنما تلبس لباس الرجل وتمشي مشية الرجل تطيل مسافة خطوتها بطريقة مبالغ فيها، وتحاول تغليظ صوتها بطريقة فجّة فتضحك كل من يسمعها. و هي لا تحبّ أن تنادى باسمها بصيغته المؤنثة إنها تحبه بالصيغة الذكرية: طمطم

اعترضت طمطمة فجرة وقالت لها:

- سواء أكنت فجرة أم باكي فالمهم ان تدخلي الحلقة لتؤدي دورك..وتغيّري اسمك كما تريدين، ولكن أمام مشهد من الناس ومقابل أداء يقنع الأخريات.

ثم راحت تسحبها حتى وصلت بها ،وسط حلقة النساء، واخذت ترقص وترقصها معها، وتخرج علبة صغيرة من الفحم أو الكحل وتلون شدقيها الأعلى لترسم شاربين،على جانبي فمها، وتثني الشال الأبيض على رأسها على شكل عمامة:

اخذت البنات ينشدن أنشودتها المفضلة وهي ترقص وتقوم بحركات وإيماءات فيها تلميحات جنسية مثيرة للسخرية:

- أَشْبَحْنِي يَا شَايْبِي .....

وترد عليهن وهي تشير إلى فجرة:

- أنْتِ تْرَى أنَّكْ هَاكّا!!!!!

- وهي في ذلك تشير إلى فجرة ، وهكذا انخرطت فجرة شيئا فشيئا في التمثيلية.. وأخذت تتجاوب مع طمطمة، وتشير إليها بأغنية: اشبحني يا شايبي!!!...

ثم اخذت تغني:

قولولي يافجرة من تاخذي

فترردد البنات:

- يافجرة من تاخذي يافجرة...

ما ناخذش الشايب..ها ها

لحية العتروس ها ها ..

يا فجرة من تاخذي..

ما ناخذش الشايب..ها ها

لحية العتروس..ها ..ها

ناخذ كان حبيبي..يا ها ..ها

وما نشرط فلوس..يا ها ها..

أوروروروروروروروروي...

كانت طمطمة تمثل دور الشايب الذي يلبس عمامة ويضع لحية وشاربين مصطنعين من الفحم على وجهه وخديه وتقترب أحيانا من فجرة وتومئ إيماءات ماجنة..فيها تلميحات جنسية.

وبين الحين والآخر تدخل إحدى الفتيات، وترقص مع طمطمة التي يدعونها باسمها المذكر: (طمطم) وتشير إليها بحركات استفزازية..كأن تضربها على مؤخرتها أو تنخزها في جنبها كما ينخز الحمار...كل ذلك والمتفرجات يغرقن في الضحك من الرجل المزيف الذي اختلقنه اختلاقا وأخذن يفرغن مكبوتاتهن تجاه الرجل المتسلط، فيسخرن ويندّدن ويعيّرن كأنما هو انتقام من المرموز له في ذاته، لا من الرمز.

وهكذا استطاعت باكي أن تقنع الحاضرات بأنها فجرة، وأصبحت معروفة باسمها الجديد.

******* ******* ******

********** **********

-XI-

تعسّرت الحال على قبيلة أولاد حامد. السنة مجدبة ،فقد شحت السماء هذا العام، ولم يعد ممكنا إخراج الشياه النحيفة إلى السوق، كما أن كل ما تنتجه البادية من خيرات كالسمن والأقط والجبن والصوف والوبر كان في غاية الشح للسبب نفسه، ومن ثم أحجمت القبيلة عن مغادرة علب ((باغام)) نظرا لأن الحياة في هذا الموضع قريبا من القرية أفضل بكثير، حيث يجد شبانهم فرصا للعمل في المزارع أو في جمع الحجارة المخصصة للبناء أو لإحراق الحجارة الجبسية لصنع المسحوق الجبسي الصالح للبناء، وفي المقابل يحصل هؤلاء البدو على رزق وفير، سواء من الحشف أو يابس التمور الذي يصلح علفا لمواشيهم القريبة، أو من التمر أو الخضار أو حتى النقد أحيانا.

صحيح أن أهل القرى، سواء قرية النخلة أم قرية الخبنة أم حتى قرية العقلة، كانوا كراما معهم طوال إقامتهم في هذا الربع. لكن علاقتهم بالحاج الحفناوي كانت في منتهى الدفء فهو التاجر والوجيه، وهو الوحيد الذي يملك دكانا في سوق المدينة البعيدة نسبيا، وهو الوحيد الذي يحرص على تسخير بعضهم للعمل في رفع الرمال باستعمال الحمير والبغال لقاء مبالغ مغرية من المال.

ومع ذلك فالبدو كسالى لا يستجيبون للحاج الحفناوي إلا حين تهددهم غائلة الجوع، ويظل التاجر الوجيه مع أهل البادية في غاية السخاء، على شرط أن يبوئوه مقامه المميز، ويوقروه وهم كذلك يفعلون.

لذلك اجتمع شيوخ النجع نجع أولاد حامد على غفلة من شبابهم، بعد صلاة العشاء، لتدارس الأمر، أمر حبّ الشاب عايش لابنة الحاج الحفناوي، وما يمكن أن يدفع إليه تهور الشباب من أحداث يمكن أن تجعل إقامتهم في هذا الربع جحيما بعد أن كانت نعيما.

هم يعرفون جيدا أن عايش لا يعدم الشجاعة والذكاء ، ولا يمكن أن يحسب حسابا للحالة المعيشية المزرية التي يمرّون بها هذا العام وربما العام المقبل كذلك، نظرا لعدم وجود لبارقة أمل تلوح في الأفق مبشّرة بتغير الوضع إلى الأفضل.

وشيوخ القبيلة يعلمون هذه الحقيقة، حقيقة عايش، وهم يدبرون مكيدة لتجنب الصدام مع الحاج الحفناوي وأهل القرية لأن الأمر يتعلق بقوتهم اليومي، ومجال الحيلة لديهم أضيق من ثقب إبرة، فلا هم يستطيعون الرحيل من هذا الموضع الذي اعتادوا عليه لسنوات كلما نزلوا من بواديهم البعيدة، ولا هم قادرون على العيش بجوار قوم كانوا السابقين إلى الطعن في كرامتهم وشرفهم، فليس أشق على الرجل القروي الفلاح، من أن تؤخذ ابنته عنوة من بين يديه ليتزوجها رجل آخر من دون رضاه أو حتى بموافقة على مضض تحت الإكراه.

اجتمع القوم في خيمة الشيخ مبروك وهو شيخ ماتت عجوزه منذ مدة، ولذا فخيمته منعزلة عن الحيفان وهي الخيام المصطفة جنبا إلى جنب، فأبناؤه وبناته بلغوا وتزوجوا وصارت لهم خيامهم، وليس من العادة أن يقصده الشباب فكأن الاجتماع السري للشيوخ لا تلائمه إلا خيمة الشيخ مبروك.

قال عمارة والد الشاب عايش:

- أفكر في ان نرسل عايشا في مهمة إلى المراعي البعيدة، تستغرق وقتا ريثما يكون الحفناوي قد زوج ابنته وانتهى الأمر، فما هي المهمة التي يمكن ان تنطلي على الشاب، ويقتنع أنّها تستحق أن يرحل من أجلها بمفرده أو حتى برفقة أحد أنداده؟؟

انتفض الشيخ رابح معارضا، لأنه يعتقد أن سلوكا متهورا من الشاب عايش قد يكون سببا في إفساد العلاقة مع الحفناوي وأهل القرية لكنه يأمل أن يتم الأمر دون مجازفة ودون خسائر؛ وذلك بتنفيذ رغبة الشاب العاشق والحفاظ على العلاقة الطيبة بين القبيلة البدوية والقرية الريفية في ذات الوقت.

- ألا نكون قد جازفنا بكرامتنا- في نظر أنفسنا وفي نظر شبابنا، من أجل لقمة العيش أهذا ما تريده يا شيخ عمارة؟؟؟.

- أنت تعرف أنها نزوة شباب عابرة، وفي حكايا الناس السالفين كثيرا ما كان يرغب رجل في امرأة ولا تتاح له فرصة البناء بها لسبب أو لآخر. ثم ينساها ويتزوج غيرها وتستمر الحياة.

- إن الخداع أمر غير محمود في كل الأحوال، أنا أسعى منذ أيام لإقناع العرباوي بأن يتراجع في خطبته لابنة الحفناوي، وعلى كل حال هو غير متحمس لهذه الفتاة بالذات لولا الضغوط الشديدة التي يتعرض لها من قبل والدته، أنت تعلم أنهم يحسبون المصاهرة استمرارا في العلاقة الأسرية التي تربطهم وتوطيدا لها فالحفناوي خال العرباوي ويمتلك أكبر حصة في عدد النخيل في الواحة التي يسمونها الغوط الكبير التي تكاد تكون مناصفة بين والد العرباوي وعمه من جهة والحاج الحفناوي من جهة أخرى.

- الأم تضغط حتى تتقرب أكثر فأكثر من شقيقها صاحب المكانة الرفيعة في البلدة، وحتى في سوق المدينة، وهي على صواب نحن نعذرها، أما أمر الشابين اللذين تعلقا أحدهما بالآخر فهذا في عرفنا يأتي في الرتبة الأخيرة بعد الأخذ بأسباب الرزق.

- فما العمل يا شيخ رابح إذن، كيف نمنع أن يحدث ما لا تحمد عقباه.

- أرى أن نشيع في النجع أن العرباوي تراجع عن خطبته، لكنه لم يعلن عن هذا الأمر تفاديا لضغوط والدته، إنّما أعلن تأجيل العرس إلى الخريف القادم، فغلة هذا العام تكفي بالكاد لبناء وتجهيز غرفة الزوجية.

- وهل ابننا عايش من السذاجة بحيث يقتنع بكلام سخيف من هذا النوع؟.

- هكذا تدخل الشيخ عمارة والد عايش بلهجة ساخرة، معترضا على شاعر القبيلة الشيخ رابح ، لكن الشاعر أفحمه حين قال:

- يقتنع ، وتهدأ نفسه ولن يتسرع في مغامرته لو كان من ينقل إليه الخبر هو العرباوي نفسه.

- كيف نستطيع أن نقنع العرباوي بان ينقل خبرا كاذبا عن نفسه؟

- الخبر ليس كاذبا بالإطلاق إنما فيه شيء قليل من المبالغة، فهو فعلا غير متحمس للزواج من الفتاة، وغير قادر في الوقت الراهن لأن استعداده لم يكتمل بعد، فإذا أومأت إليه بإمكانية مغامرة الشاب عايش، بخطف الفتاة، ربما يقتنع بالقيام بما أمليه عليه فقد أصبحت موضع ثقه لديه إلى حد كبير.

- واللّه يا شيخ رابح ..الهاجس يقض مضجعي منذ أن علمنا بهذه القصة، وأكره ان أتسبب لكم في عسر الرزق، ولقد فعلت ما يمكن أن يفعله أب ليثني ابنه عن التفكير في فتاة من غير طينته، وعرضت عليه أجمل فتياتنا لكنكم تعلمون أنه شديد العناد.

- اترك الأمر عليَّ يا شيخ عمارة، فلن يكون الأمر إلا وفق ما نرغب فيه جميعا.

- كانت كؤوس الشاي المنعنع تتوزع على الحاضرين، الشاي الذي كان أمرا عزيز المنال في تلك الفترة و يعتبر فأل خير في البوادي وحتى في القرى الريفية، فبالإضافة إلى أنه منعش ومنشط ، يجعل الجلسة أكثر وديّة وهادئة لاسيما وأن الجميع يتدارسون أمرا يهم مستقبل القبيلة برمتها لا مستقبل الشاب عايش فحسب. ولمّا كان الجميع يثق في الشاعر رابح فقد اطمأنّوا إلى وعوده بأن يمرّ الأمر وفق ما يرغبون ؛ فله علاقة طيبة بأهل القرية ، وهو – بالفعل- مؤهل لذلك لما له من لباقة في جذب محدثه والتأثير عليه وإقناعه، كما يعلمون أنه كثير التردد على القرية، ولا يشكون في مزاعمه، بعلاقته بالعرباوي بالذات.

وهكذا تواصلت الجلسة الهادئة وخاضوا في أحاديث شتى، منها أن فصل الشتاء على أبواب الرحيل، ولم يبق إلا شهر ليستقبلوا الربيع، وكانوا يتمنون لو

استقبلوا الربيع عند مواشيهم ومراعيهم لكن سنين الجدب ألزمتهم المكث قريبا من القرية. ولو أن الرعاة في البادية. وهم غالبا شباب النجع الذين يتناوبون على تفقد رؤوس الإبل والماشية، يعودون بين الحين والآخر بمقادير جدّ شحيحة من خيرات البادية.

بعد فترة من الصمت قال الشيخ مبروك:

- لقد طال مكث الرعاة في البادية هذه المرة، أليس كذلك؟

- لقد انتقل أصحاب الدور الأخير قبل بداية الليالي البيض، واليوم أو غدا تبدأ الليالي السود، وهم عادة يحضرون في الأيام العشر الأوائل من الربيع.

- أرجو ان تكون الغلة وافرة، ولو أن الأمل ضئيل، ومع ذلك فاحتفال "تاقطيوط" يتوقف على وفرة الغلة، وشحها يجعل الاحتفال ضعيفا.

- تاقطيوط في الأصل دعاء إلى اللّه عز وجل أن يحفظ الماشية وينزل الغيث النافع، ويعم الزرع وينعش الضرع، فيفترض أن يكون الدعاء عند اشتداد الأزمة.

- تعود آباؤنا أن يكون "تاقطيوط " مرفوقا بصنع حلوى " الرفيس "من فتات الكسرة ودبس التمر، حتى تحلو السنة القابلة ، وحين يشح الخير، يقل السمن والدبس والقمح والشعير، فلا نجد مما نقدم لأنفسنا، فتضعف الاحتفالات.

- مع أن المولى عز وجل لا يحتاج إلى حلوى ولا رفيس، إنما يحتاج إلى دعاء صادق الضراعة.

أخذ النوم يداعب أجفان الشيوخ، رغم كؤوس الشاي العديدة التي شربوها منذ بدء السهرة، وكانت الجماعة تهم بالنهوض كل إلى خيمته ليتركوا الخيمة للشيخ مبروك منفردا فيها، بسبب انه لا زوجة له، لكن دويا سمع من بعيد أفزع القوم فاخذ الجميع يتساءلون:

- هل سمعتم شيئا؟؟

- كأن ضربا على الأرض لعدو خيل من بعيد..

- لعل الشبان قد عادوا من البادية ولو أنّه ليس ميعاد عودتهم، أو لعـل زوارا غرباء قدموا في هذا الوقت المتأخر؟؟

خرج أحد الشيوخ يستطلع الأمر، فإذا بشباب القرية ينطلقون لاسـتقبال الوفـد التي عاد من البادية قبل نهاية الليالي السود، وهو أمر غير معهود لديهم...

اخذ الشيخ عمارة يفكر فيما عاد بهم مبكرا، ويفكـر فـي إمكانيـة، إرسـال ابنـه عايش مع الفريق الذي يخرج إلى البادية هذه الأيام ولا يعود إلا منتصف الربيع.

********** ********* ********** **********

- XII -

واحة النخيل تبدو من أعلى الكثيب شديدة الخضرة، أشجار النخيل متقاربة، حتى تبدو الواحة كأنها مظلمة من الداخل لا سيما أن الوقت بداية العصر، فبعد أن يفرغ الشبان من عملهم، لا شك في أنّ قليلا من اللهو سينسيهم عناء التعب خلال النهار الطويل.

علي البغلي، سالم ولد حمه لخوص، الجموعي الحلوف، الرشيد المشنوق، حمه لمهنتش، وهؤلاء كلهم شبان بين العشرين والثلاثين، أحدهم علي ابن الحفناوي الذي أصبح الحفناوي البغلي بعد توثيق الألقاب الجديدة في الحالة المدنية، وبعد ان أصبح لكل منهم وثيقة هوية، كان اللقب عبارة عن تنابز، وغالبا ما يذكر في غياب صاحبه. أما بعد ان أصبحت وثيقة رسمية تحمل اللقب،فلم يعد الناس يجدون غضاضة في أن ينادوا أحدهم يا البغلي أو يا الحلوف ...الخ.

حجموا قلب النخلة وجمعوا كمية من عصير الجُمّار الذي يعرف على نطاق واسع باسم (اللاقمي) وتنطق القاف نطق الجيم المصرية أو الكاف المجهورة، ويشرب هذا العصير حلو المذاق إذا استخلص لتوه من قلب النخلة، أما إذا مضى على استخلاصه يوم أو بعض يوم فإن كمية السكّر فيه تتحول إلى كحول، وتتحول حلاوته إلى مرارة أو حموضة لاذعة، ويصبح نبيذا قادرا على اللعب بالرؤوس.

أمضى الشبان وقتا في صنع الأراجيح من جريد النخيل بأن يربطوا جردتين إحداهما من نخلة وأخرى من نخلة مجاورة، وهكذا يلعبون البهلوان في نوع من الصخب والضجيج والضحكات العالية ينتهزون غياب الكبار والشيوخ الذين يسعون إلى المساجد وقبلها يجتمعون في ساحة القرية حيث يلتقون ليتجاذبوا أطراف الحديث في شؤون مختلفة.

بعد ذلك تحلق الشبان يقضمون الدقلة البيضاء أو الكنتيشي ويشربون اللاقمي ، بعضهم يشربه حلوا، مثل علي بن الحفناوي البغلي أو الحاج الحفناوي، لأنه يخشى مراقبة ولده وبطشه، وبعضهم لا يستنكف أن يشربه بعد أن يتخمر، ومن ثم يقضي الليلة ساهرا إلى الهزيع الأخير من الليل بعد الخروج من الواحة إلى الكثبان الرملية الفسيحة ذات النسيم المنعش. لاسيما في أوائل الربيع وأواخر الشتاء.

- اشرب قليلا يا علي ولا تخش شيئا.

- أنت تعرف ان الحاج يتفقدني مباشرة بعد العشاء، ولا ينام حتى يسأل أين هو ذلك ((المطهوش))[2]؟

- هههههها ها ها ها هاهاهاها!!!!!!!.

- بعد أيام سينشغل الحاج الحفناوي بزواج كريمته "باكي" ويخلو لك الجو وتشرب حتى تتحول إلى أعمى!!!!

- هنيئا لك يا عرباوي!!!!!

- متى يأتي دوري يا رب؟؟!!...

- المشكلة أن العرباوي لا يبدو فرحا لقرب الزواج ...

- حتى الطفلة تبدو حزينة طول الوقت وفي صمت دائم. هكذا غمغم علي البغلي وهو شقيق عروسة العرباوي.

- ربما لم يكن الزواج بتراضي الطرفين؟؟

- المهم أن العزم انعقد على أن يتم الزواج يوم الخميس والبداية كما هو مألوف يوم الثلاثاء.

- ترى هل سيكون الحفل ساخنا كما كان عرس عامر أخيك؟؟

- إذا كان العرباوي نفسه غير متحمس ، ولا يرغب في الهرج والمرج...كعادته فهو دائم العزلة وله فكر غريب.

[2] - اسم مفعول من طهش : كلمة عربية تعني إفساد العمل والخلط فيه ، وفي العامية إفساد العقل والخلط بين الأمور.

- سمعت أنّ أولاد حامد خطبوا البنت لأحد شبانهم ، هل هذا صحيح؟؟

- الأمر جديد من نوعه، لم يحدث من قبل أن خطب البدو بناتنا؟ لكني علمت أن القوم اجتمعوا بالحاج ولا أحد يُعرف سبب الاجتماع ولا نتيجته.

- السلام عليكم..!!!!.

- وعليكم السلام...كيف حال نعم سيدي؟؟؟

توجس الشبان ان يقترب الطالب عيسى، وهو طالب يقرئ الصبيان ويخلف الطالب الحسين من حين لآخر في الصلاة. وخبأوا زقّ((اللاقمي الميّت)) وهو النوع المخمّر من العصير، ويتهامسون فيما بينهم ، لكي يقوموا بحركات حتى يتوهّم أنهم سيقومون من جلستهم، لكن نعم سيدي انصرف صاعدا الكثيب بخطى متثاقلة. فعاد الشبان إلى صخبهم .

- ويحك هل كنت ستدعوه؟.

- "العرضة سنة"؟؟

- لكن الطلبة طماعون ،لا يعرف هذا المثل إنما يطبق مثلا آخر:" المعروضة تربح" ربما سمعتم ما حدث لإمام جامع النواصرية ، بمجرد ما قيل له : هيا بسم اللّه ، أجاب : المعروضة تربح!!!.

- ووجدهم يشربون "البعلي"[3]؟؟

- كان لديهم الحلو والمرّ معا، فسألوه نعطوك من لا قمي الرجال يا نعم سيدي أو من "لا قمي" النساء؟؟

- استحى الرجل أن يقول اعطوني من لا قمي النساء فهو رجل بطبيعة الحال....

- هههها هها ها ها ها

- لم يكن بجرأة علي البغلي فهو يكرع من "لاقمي" النساء دون خجل هههههها!!!!!!

[3] - البعلي لفظة يومئون بها إلى العصير المخمر المستعمل للسكر.

- فاعطوه من "لاقمي" الرجال...
- وحين تذوقه لم يكتشف الخديعة؟؟؟
- كانت نوبة حرّ ،وكان شديد العطش ، كما أنّ المشروب تخمر جزئيا في مكان بارد فلم يفقد كل حلاوته. شرب الرجل الطاسة بنَفَسٍ واحد.
- وماذا حدث للطالب المسكين...
- شرب الطاسة وشكرهم وصعد الكثيب ذاهبا إلى صلاة المغرب ، وما ان وصل أعلى البرنوسة[4] حتى أطلق ضحكة هستيرية...
- وهل ذهب إلى الجامع..؟؟
- لحسن حظه أنه ذهب إلى البيت ، وبقي يضحك ويقهقه إلى ما بعد العشاء، وافتقده المصلون، وقالوا : لا بد ان يكون ((نعم سيدي)) مريضا. وذهبوا لزيارته ، ووجدوه يضحك دائما ويقول أبيت إلا ان اكون رجلا ...أنا رجل!!!.رجل.. أليس كذلك؟؟؟ وهكذا عاد المصلون يضربون كفا بكف ويتحسرون على إمامهم الذي رفض أن يشرب " لاقمي " النساء. وأصرّ على ان يكون رجلا!!!!!!!.

****

[4] - حاجز من السعف في اعلى الجدار الرملي الذي يحيط بالواحة

-XIII-

حركة دائبة، على قدم وساق يشترك فيها الرجال والشبان في ناحية، والنساء والفتيات من ناحية أخرى. جلبة وضجيج في ربع أولاد حامد، يقيمون طقوسهم الموسمية بمناسبة (طقطيوط). لا أحد يعرف شيئا عن غرابة هذه الكلمة عن لغة القوم، وكل يفسرها حسب هواه أو مزاجه أو قدرته على التلاعب بالألفاظ.

فمنهم من قسمها إلى ثلاثة مقاطع: طق طق طق طق ، طيو طيو طيو،أط أط وقال إنها دلالة على الطيور التي تنقر الحب في فصل الربيع: طق طق طق... وتكثر في الربيع وتزقزق: طيو.. طيو.. طيو...والفخ الذي ينصب لها فتقع فيه..

لكن الأمر الذي يتفق عليه الجميع، أنه احتفال بعودة الربيع، فعندما يكونون في البادية يكثر السمن واللبن والجبن بسبب انتعاش الزرع والضرع، فتكثر الخيرات، ففي كل سنة يحرقون الأعشاب الضارة والجافة ويكررون الابتهالات إلى اللّه بالحمد والشكر على الخيرات التي أنعم اللّه بها عليهم، ويبتهلون أن يحفظ ماشيتهم وأطفالهم وأنفسهم من عوادي الطبيعة التي تلين حينا وتقسو أحيانا،ولا بد من أنّ وفرة الطعام ونوعيته وخاصة الرفيس؛ الخبز الحلو والدسم لأنه مخلوط بالسمن والدبس، يتبع بشيء من مظاهر الفرح كإنشاد الشعر والغناء لكن هذا الشعر وذلك الغناء يكتسي- غالبا- ثوبا دينيا.

الرجال ينشغلون بذبح الشياه، وتقطيع اللحوم، وتقسيمها بين الخيام والنساء ينشغلن بعجن دقيق القمح وخلطه بالسمن، وإنضاجه على صفائح من حديد على نار موقدة بخشب العلندة الغليظ.

الشاب عايش وبعض الشبان الذي عادوا في الأيام القليلة السابقة، من البادية بزاد غير وفير من السمن والجبن والأقط والصوف وغير ذلك من خيرات البادية كالكمأة والزعتر وبعض الحيوانات الصغيرة المجففة كالضب وبعض

السحالى الأخرى،يطبخون الشاي ويتسامرون، ويملّون بعض الخبز المخلوط بعجين الشعير والكمأة في الرماد الساخن. يصحبهم الشاعر عمي رابح بأدعيته الشعرية المتفائلة بعودة الغيث النافع الذي يعمّ البوادي والقفار:

بَـرْقْ الْضِـوِي بِـينْ لَمْـزَانْ فِـي الْعَقِرْبَـه بَـانْ
سِـيلَهْ رِوِي كُـلّ عَطْشَـانْ خَلّـفْ لِرَاضِـي نِجِيلَـه
عْقِيفَـــةْ وْلِسْـــلِسْ وْبَـــدَّانْ كِمَـــا زَرَعْ فَـــدَّانْ
رَبّ سِـــبَلْ سِـــتْرْ لاَمَـــانْ عَ الْيَاسْـــرَهْ وَالْقِلِّيلـــه
مِ لِّيسْـــرِي لْصَـــحِنْ غِـــيلاَنْ حَتّـــانْ فَـــزّانْ
دهـم نفـايض الزيبـان قـدا ويـن تحـرث الميلـه
أمياهــه تدقــدق الكيفــان فــي لــرض غــدران
كُلّ هُودْ يِفْعِمْ وْمَلْيَانْ مِـنْ فَضَـلْ وَافِـي جِمِيلَـهْ
وُاللّـــي عَطَـــى مُـــوشْ مَنَّـــانْ نَجَّـــمْ الْحِيـــوَانْ
كسّـايْ مِـنْ جَـاهْ عِرْيَـانْ مِـنْ جَـاهْ نَـادِمْ يِقِيلَـهْ

ويتصدق البدو بعضهم على بعض بالرفيس، وبعض الخيرات كالجبن، وتترك النساء حصة الجيران الأقربين من أهل القرية. حدّي، والدة عايش،تدّخر كمية من الجبن لبعض النساء اللات تخصهن بالودّ من حين لآخر.

كان الاحتفال بهيجا، لكن العمل الذي كان ينتظر القوم كان أكثر فورود كميات كبيرة من الماء، وتنظيم ما جلبه الرعاة من أرغفة الجبن ومن كميات الأقط واللبن في عدد من المزادات الجلدية، وتوزيعه، وربط كميات أحطاب العلندة والآزال الجافة في حبال على ظهور الإبل لحملها إلى سوق المدينة وأعمال أخرى كثيرة اضطلع بها البدو شبانا وشيبا، نساء ورجالا.

لم يكن عايش يفكر في مشكلته، ومشكلة حبيبته فجرة لا سيما بعد أن لقي العرباوي وقال له إنه يسعى للتأجيل عسى أن ينتهي الأمر على خير، وأضاف جملة مبهمة، لكن عايش أولها تأويلا يجعله مطمئنا بعض الشيء، وهو أنه لا يرضى أن تكون ابنة خاله ضحية فيتركها لخطاف العرائس، ويتنازل عنها خير ألف مرة من فضيحة نكراء لخاله الذي يحبه كثيرا ولا يرضى له السمعة السيئة.

الأمر الآخر الذي يُطَمْئِن عايش أكثر فهو العادة التي درج عليها أهل القرية إذ لا يقيمون أعراسهم إلا بعد إخطار أهل النجع البدوي بضرورة تحضير أنفسهم لحفلات البارود التي برع فيها عايش ومجموعته، وحفلات الغناء البدوي الذي برع فيه كهولهم.

لو كان "عايش" بمفرده، لشك في الكلام الذي سمعه من العرباوي، وربما قرأه قراءة مغايرة، تجعله يعجّل بالعملية اليوم قبل غد، لكن عمي رابح كان مرافقا له في كل خطوة، وكان يقنعه بأن الأمور سوف تتم على خير إن عاجلا أو آجلا.

انغمس الجميع في احتفالات "تاقطيوط"، فكانت السهرات تمتد إلى الهزيع الأخير من الليل، في سمر وحكايات من الرعاة الذين يتحدثون في رحلتهم التي دامت شهورا، عن غرائب الصحراء وحيواناتها، والشباب الذين يروون الطرائف والأشعار؛ أما الشيوخ فكانوا ينامون بعد صلاة العشاء، لأن الأشغال المرتبطة بتاقطيوط لا تزال مستمرة، سواء في تنظيم الغرائر وإفراغها من محتوياتها أم في إعداد القافلة للرحيل من جديد بعد فترة قصيرة من المكث في النجع، لكن الفوج الذي يرحل النوبة القادمة غير الذي عاد من النوبة السابقة.

كما أن إخراج بعض البضاعة إلى السوق ضروري جدا، فهم بحاجة إلى بعض المال، لذلك لاتزال الاشغال جارية ليومين أو ثلاثة أيام أخرى، ومن ثم فكبار السن غير الشبان، ولا سيما النساء يستيقظن عند الفجر للبدء في إعداد الطعام الشهي هذه الأيام والمكون من الرفيس والكمأة وربما بعض القدّيد أو حساء الرغيدة الذي يتخذنه من طحين القمح والشعير مخلوطا ببعض الجبن والأقط ، فتزيده الملوحة والحموضة طعما شهيا .ونادرا ما يفطرون الصباح إلا في فرص نادرة منها فرصة تاقطيوط، غير أن العام هذه السنة لم يكن كأحسن ما تكون الأعوام خصوبة ورخاء، ولو كان العام مريّا لكان لهم شأن أحسن بكثير.

بدأت حدّي والدة عيشة ووالدة عايش توقد النار، خلف حواجير الخيمة لتتقي نسمات الريح القوية في آخر هذا الليل، قبل أن يشعشع نور الفجر، وأيقظت

زوجها عمارة، واخذت تساعدها عيشة على تقطيع خشبة من حطب العلندة. فإذا بها تنتبه فجأة كأن أحدهم قد نخزها من الخلف.

- ماذا ..؟؟
- سمعت انت كذلك ..
- نعم صراخ ولكنه بعيد جدا...
- اجل من المؤكد ان الصراخ ليس في حدود نجعنا..
- لا يوجد شيء خارج النجع إلا الفراغ...هل يعقل أن يسكن بجانبنا نجع آخر في غفلة منا؟.
- هذا محال..ولكن هذا الصراخ منفرد..صراخ امرأة أليس كذلك..او طفل صغير لم نتبين بدقة ؟؟

أيقظت زوجها عمارة وناولته إناء الماء ليتوضأ، وهي تقول في نبرة النائم المستيقظ ، يبدو ان صراخا بعيدا يجب أن نتحسس لعل أمرا خطيرا يحدق بنا من حيث لا ندري..

- ربما تكون امرأة جاءها الطلق في هذا الفجر، في الطرف الأعلى من الخيام،فإذا كانت تصرخ من داخل الخيمة يكون صوتها مكظوما كأنه آتٍ من خارج الربع.
- هنية زوجة حم السباع..ربما تكون هي... فقد دخل شهرها منذ أيام...
- أيقظي بعض النساء وخاصة قمرة القابلة وافزعن إليها..
- لكنه صوت استغاثة وليس صوت امرأة في حالة الطلق؟!!!!
- إنه آت من الجهة القبلية. وليس من الجهة التي بها خيمة آل السباع. سأوقظ بعض رجالنا ونتبين الأمر..على خير هذه الساعة...
- إن شاء اللّه!!!!.

********** ****** ***** ****

- XIV -

البنات يزدحمن على البئر العذبة المحاذية للواحة الشرقية والمسماة بير السبيل، صحيح أن القرية قريبة جدا، لكن لم يبق بعد البئر إلا الكثبان الخالية إلا من السحالى ونبات اللبين والحلفاء والحاذ.

منذ أيام تخرج فجرة مع الفتيات على الرغم من أنّ شقيقتها "مسعودة" تكفيها مؤونة الخروج عند الحاجة إلى المياه العذبة، لكنها استطاعت بحيلة أن تبادلها الأشغال المنزلية بالخروج إلى المورد.

لا تزاحم فجرة زميلاتها على البئر، إنما تتركهنّ يتزاحمن، وهي تتمنى أن يأتي فارس الأحلام على حصانه الأبيض، ولكنها في نهاية المطاف تملأ قربتها وتسير خلفهن جميعا بمفردها وهي تتساءل لماذا تأخر عايش، ولم يأت لإنقاذي؟ ألم يسمع أن عرس العرباوي سيكون الخميس القادم؟ لم يبق إلا بضعة أيام. هل سينتظر اللحظة الأخيرة؟ في اللحظة الأخيرة يشحذ القوم سكاكينهم ويتأهبون للحراسة وهم لا يجهلون طبائع البدو إذا أحبوا ،وقد حاول عمّي رابح أن يثني الحاج الحفناوي عن عزمه، ولوّح له بإمكانية الفضيحة الكبرى إن قرّر الشاب أن يركب رأسه ويتهور. الظاهر أن عايش ذكي ولا يمكن أن ينخدع بعدم وجود ضجيج العرس، فالجميع في القرية أصبح يعلم نيّة العرباوي في أن يكون العرس من غير ضجيج، ولا سيما الضجيج الذي يمكن أن يسمع من بعيد كالبارود والقارابيلا، ماذا لو لم يأت عايش حتى آخر لحظة؟ إنها الكارثة، كلما تصورت نفسها في أحضان العرباوي أحست بالاختناق والرغبة في البكاء.

وهكذا تسير فجرة خلف البنات منكفئة على نفسها غارقة في هواجسها إلى أن تصل البيت وتفرغ القربة في الزير..

تـأخر موعـد الـورود هـذه المـرة إلـى مـا قبـل المغـرب، فأهـل العـرس بـدأوا يسخّرون كل شيء من أجل عرسهم حتى البئر العذبـة التـي خصّصـها أهـل البـرِّ والإحسان للسابلة.

خـرج الأطفـال مـن كتـاب الطالـب الحسـين، والتحقـوا بالجـامع، فهـو يعلّمهـم الصلاة إلى جانـب حفـظ القـرآن، وبعـد الصـلاة ينتشـرون فـي السـاحة الواسـعة، ويصل بعضهم إلى البئر القريبة.ها هم يختصمون كأنّ بيـنهم ثـأرٌ كبيـر، وكـل منهم يقسم بأغلظ الأيمان على أحقيته في السبق إلى البئر.

ويفاجئون بفجرة التي لا يزالـون يسـمونها (بـاكي)وهي تسـير وحيـدة بخطـى متثاقلة وتحمل قربتها، الحبل مشدود إلى الكتف وتدعم القربة بكلتـا يـديها مـن الأسـفل، وهـم يعلمـون أنهـا سـتزف يـوم الخمـيس للعربـاوي، فيلتفـون بهـا ويصيحون وهم يوقّعون على ألواحهم.

- بـاكي بـاش ياخـذك العربـاوي؟ العربـاوي ياخـذ بـاكي والحامـدي نعطـوه الناقة..!! ويوقعون على ألواحهم كأنما يدقون الطبول..
- العرباوي ياخذ باكي والحامدي نعطوه الناقة....

ينطقون الذال في كلمة يأخذ بالظاء المفخمة.. يصيحون حولها ، تضـع القربـة على الأرض. وترميهم بالحصى والتراب ، ثم تجثو على الأرض باكية وهي تلعن اليوم الذي رأت فيه حبيبها عايش لأوّل مرّة بل تلعن اليوم الذي جـاءت فيـه إلـى الدنيا.

تذكرت الحكاية التي روتها لها (طمطم) المرأة المسـترجلة ، حـين علمـت أنهـا ترفض العرباوي ، لقد كان يجثم علـى الأرض ويبكـي ، كوضـعها الحـالي ، حـين كان يتردد على الكتاب.

كان الطالب الحسين يعلم التلاميذ الصلاة بطريقـة عشـوائية ، بحيـث يعلـم بعضهم بعضا في الغالب، وكان يحثهم على الاستباق إلى دخول الجـامع والتـأنّي فـي الخـروج وعـدم التسـرّع لمـا رأى انهـم ينسـحبون عقـب التسـليم مباشـرة

ليغتنموا فرصة للعب ريثما يفرغ المصلون من المعاقبات وهي الأذكار التي تتلى عقب كل صلاة.

ولا أحد يعلم كيف وقر في أذهان التلاميذ الصغار أنه يستحسن أن يكون كل واحد سباقا إلى دخول المسجد، فذلك يطيح معنويا بالشيطان الذي يحث على التأخر، بل أكثر من ذلك يحثّ على عدم الدخول إلى المسجد أصلا، وهكذا فمن كان سابقا غيره من التلاميذ إلى الدخول فقد نخز الشيطان بأنْ وضع الإصبع الوسطى في دبر إبليس.

أما من سبق في الخروج من المسجد عقب الصلاة مباشرة، فالشيطان هو الذي يضع وسطاه في دبر التلميذ. وللغرابة فهم يعتقدون أنّ هذه القاعدة لا تنطبق على الكبار إنما على التلاميذ فحسب.

وكان العرباوي قد سها فخرج قبل الكبار، وكان زملاؤه يرقبونه حين سبق الكبار إلى الخروج. فلحقوا به خارج المسجد أحاطوا به وهم يصرخون:

- العرباوي بعبوص ابليس. العروسة للعريس.....

أخذ العرباوي يبكي لما أدرك انه أخطأ خطأ فادحا بتسرّعه في الخروج. وأن التلاميذ يسخرون منه لأجل ذلك. فجثا على الرمل وأخذ يبكي ويحثو التراب على التلاميذ الذين يعيرونه بان الشيطان قد نخزه في دبره.

كبر العرباوي، وكان يضحك كثيرا كلّما تذكر طرافة هده النكتة الدالة على سذاجة الأطفال .ومع ذلك فقد كره الصلاة في المساجد، على الرغم من إلحاح الناس وإنكارهم عدم صلاته في المسجد، وأصبح له في ذلك فلسفة أو ما يشبه الفلسفة، فهو يرى أنّ صلاة الجماعة في المسجد معظمها للناس وليس كلها للّه، فالناس في المساجد يسترضي بعضهم بعضا أكثر مما يسترضون اللّه. ولكنه يسوق هذه العبارة في سياق الدعابة والمزاح حتى لا تردعه الجماعة بشدّة بأن تحكم عليه حكما قاسيا.

تذكرت فجره العرباوي جاثيا على التراب، وهو يبكي. وبينما هي كذلك إذ قدحت في ذهنها فكرة خطيرة.. اليوم السبت، بداية الأسبوع، ويستحيل أن

يتركوها ترد الماء يوم الاثنين لأن بداية العرس يوم الثلاثاء. فلم يبق أمامها إلا فرصة اليوم ويوم غد الأحد، بينما الحصان الأبيض لم يأت ولا تبدو في الأفق بارقة أمل أنه سيأتي.

فلم لا تحسم أمرها الآن؟؟ فكرت وقدرت...المصيبة آتية لا محالة...فلم الانتظار؟؟

انفض الأطفال من حولها، وتركوها تبكي متأبطة قربتها، وقد ابتلَّ صدرها بالماء والدموع معا، التفتت يمينا وشمالا إلى الخلف وإلى الأمام، مسحت دموعها بذيل فستانها، وضعت القربة قرب البئر، لا أحد يرقبها..صدرها ينتفض كأنه طير في قبضة الشرك، قلبها يدق دقا عنيفا، يداها ترتعشان ،قدماها لاتكادان تقويان على حملها. لهاثها كأنه صوت مرجل النار من شدة الحرارة والتسارع، اعتلت الكثيب الرملي القريب، ونظرت كانت الشمس قرصا أحمر كبيرا بدا يختفي خلف الكثبان الصفراء اللامعة، بعض أشجار النخيل تعكس ما بقي من أشعتها الحمراء اللامعة كأنها خيوط أرجوان.

لا يبدو شيء في الأفق... الفراغ والفضاء المطلق، أحست بارتعاش شديد يغمرها، كأنه يدفعها دفعا، التفتت خلفها كأنها تودع القرية والحياة برمتها، ثم اندفعت في الاتجاه المعاكس اتجاه منطقة "باغام" حيث يتبادر إلى قلبها أن شقيق الروح هنالك. صحيح أنه خذلها ولم يأت لنجدتها ،وهي الآن بين نارين: نار الموت ونار الاستسلام لجبروت الظلم الأبوي البغيض. لكنها لن تخذله، ستكون أوفر منه شهامة، ستعلمه درسا، في أن المرأة إذا أحبت بصدق، تستطيع أن تكسر كل جدران المعتاد المألوف من الأمور، وتقاليده البالية. الظلام أخذ يلف الكثبان شيئا فشيئا، وهي تسير حافية القدمين على الرمال الهشة،تنظر أمامها وبين أقدامها،وهي تجري في البداية،كانت تندفع بأقصى سرعتها، لكنها ما لبثت أن أخذت تتهالك.

نسيم الربيع يداعب غطاء رأسها، ثم خصلات شعرها الفاحم ،ينعشها النسيم البارد، فتندفع جريا بعد فترة مشي تستغرق بضع دقائق. تأخذ

الهواجس في اقتحام صدرها الغض، هل سينتبهون لغيابها والسؤال عنها، هل سيلحقون بها، لاشك أنهم ماهرون في الكشف عن الأثر، أثر الأقدام على الرمال الهشة، يميزون من خلالها بين الشخص والآخر، ما أن يصلوا إلى البئر حتى يعثروا على المزادة المملوءة، ثم يكشفون اتجاه (الجرة): أثر أقدامها على الرمال.

كلما فكرت أن ترتقي كثيبا من الكثبان العالية، مستطلعة اتجاه خيام نجع أولاد حامد، خشية ان تضل الطريق متخذة اتجاها مغايرا، أحجمت عن الفكرة مخافة أن يلمحها الملاحقون المفترضون.

أظلم الليل، لا توجد أشعة مقمرة، ولا بقايا أشعة الشمس الغاربة، ولا حتى النجوم المتلألئة في السماء.. فجرة تجري وتجري لم يبق لها أمل إلا ببزوغ الفجر..لكن الفجر بعيد بعيد، فهي تتعثر وتمشي تارة وتجرى تارة أخرى، وتتعثر مرة في شجرة (لبين) ومرة أخرى في شجرة حلفاء. سقطت عدة مرات على الرمال الهشة. تعفّر وجهها الناعم بالرمل، وهي تندفع إلى الأمام بحركة هستيرية عنيفة وتواصل اللهاث والأنين بصوت خافت حين يبلغ منها الجهد مداه.

كانت ترغب في أن تستريح قليلا من فرط التعب الذي أنهكها، لكنها فكرت في إمكانية اللحاق بها، لا شك في أن والدها الحاج الحفناوي قد سخّر معه لفيفا من الرجال المقربين؛ خالها وابن خالها ومن كشافي الأثر، وهم الآن في طريقهم إليها.

لذلك تواصل سيرها، مرة جريا ومرة مشيا، وتدعو اللّه أن يكون طريقها في الاتجاه الصحيح إلى خيام منطقة " باغام" فهي تخشى أن ينحرف بها السير وتوغل في صحراء ما وراء ها إلا صحراء أخرى أشد وحشة.

أكثر من ساعتين وهي في لهاث مستمر، وبين عثرة ونهوض. لكن الفجر ما يزال بعيدا، سمعت نباح كلب من بعيد فبدأت تستبشر وتتوجس من جهة أخرى، استبشرت قليلا لأن الكلاب رفاق الإنسان من أقدم العصور، فمعنى ذلك أن

الحيّ لم يعد بعيدا، لكنها توجست من أن تهاجمها الكلاب الحارسة، معتبرة إياها طارقا غريبا بعد منتصف الليل. وفي الكلاب ما هو شرس لا يرحم،وفجأة سقطت على شجرة حاذ أحست بألم فظيع في قدمها، وركبتيها ويديها، نبات الحاذ شوكي، أشواكه دقيقة وقصيرة، ويمدّ فروعه على الأرض، تأكله الإبل، لكن الإنسان لا يقترب منه لسوء الاستقبال ونفوره من الناس، تحسّست يديها في الظلام الدامس لما شعرت بلزوجة، بكت من شدة الألم لكن بصوت مبحوح مكظوم. علمت أنّ الدماء تقطر من أصابعها الغضة، ولا شك أنها تقطر من ركبتيها وقدميها لأن الألم فظيع، في كل مواضع جسدها اليانع، وفي المواضع المصابة بالأشواك.

قلبها يخفق بشدة وعنف كأنه يريد ان ينفلت بوقاحة من بين ضلوعها كلما اقترب نباح الكلاب.. كثيرا ما سمعت أن كلاب البدو شديدة الشراسة، ومع ذلك فالأمان يقترب شيئا فشيئا، قد تنهشها الكلاب، لكن هناك احتمال آخر، قد ينقذها رجال أولاد حامد ونساؤهم وتصل مبتغاها ويحضنها حبيبها عايش، على الرغم من أنها حانقة عليه حنقا شديدا إذ اضطرها إلى خوض هذه المغامرة من أجل النفاد بجلدها.

أقسمت على أن تخاصمه عدة أيام ولا تنظر في عينيه ، لكنها كانت تتراجع، لعلمها أنه يحبها، ولعدم قدرتها على ذلك، ولشعورها بالارتياح أن فكرة المرأة المسترجلة، (عيشة الراجل) كما تعيّرها النساء المسنات. أو طمطمة وهو اسمها الحقيقي، أو (طمطم) بصيغة المذكر، كما تحب أن ينادينها، وهي أن المرأة يجب ألاّ تنتظر الرجل، بل يجب عليها أن تقلب الموازين القديمة، وتبادر إلى الأخذ بزمام الأمر بيدها ولو أدى الأمر إلى التضحية الجسيمة، فإنها بذلك قد تغير من الواقع الأليم الذي تعيشه المرأة تحت سلطة الرجل.

نال منها التعب أقصى مداه، لم يعد جسدها الطري يقوى على المشيء، كانت تسقط بين الحين والاخر، ثم تنهض وتواصل السير، البرد أيضا نال من جسدها المنهك رغم أن الوقت أواخر الربيع، وهَنٌ شديد يسرى في أطرافها

الدماء لا تزال تسيل من قدميها ويديها وركبتها تحس لزوجة دافئة تغمر مواضع متفرقة من الجسم.

ساعة أخرى ثم ساعة....وأخيرا..جثمت رغما عنها على مرتفع، تلتقط أنفاسها، كأنما نار تنهش أحشاءها، الأكمة تدور بها، والأرض تدور، لحظت من البعد لمعانا خافتا، بين كتل سوداء كبيرة، نهضت وجرت بأقصى سرعتها كأنها جمعت لنفسها قوى جديدة. احتارت في نفسها من أين لها كل هذه القوة، لم تعد تشعر بأقدامها ولا صدرها الذي يهتز اهتزازات عنيفة، أطلقت ساقيها للريح في اتجاه الومضة، لم تكن تفتقر إلى الذكاء الذي تستنتج به أن الكتل السوداء الكبيرة ما هي إلا خيام أولاد حامد، وما الومضة إلا بقايا نار أشعلت أواخر الليل فعود شجرة الزيتا معروف بسمكه وصلابته وقدرته على الإمساك بالنار أطول وقت ممكن.

بدأ البياض يظهر في الأفق، لم يعد الفجر بعيد ا، تقترب أكثر فأكثر من الخيام التي لم تعد كتلا سوداء قاتمة في سواد، إنما اخذ السواد المحيط في الانقشاع. لمعان اثنان ثلاثة شبح أسود يتحرك بين الخيام أطلقت صرخة أولى وثاثية وثالثة وسكنت الدنيا من حولها، وغاب منها الوعي

****

-XV-

لم تفتقد سودة ابنتها فجرة إلا بعد أن حان موعد العشاء، بحثت عنها لتملأ المثرد بالكسكسي لأبيها وأخيها عامر اللذين تعودا على العَشاء بعد القدوم من صلاة العِشاء، فلم تجدها ، صاحت بأعلى صوتها :

- باكي ...باكي ...باكي...يا مجنونة ...يعطيك مصيبة!!!!!!

ثم تذكرت أنها لم ترها منذ ذهبت للمورد، وتوجهت إلى شقيقتها الصغرى، التي كانت في اسطبل الماعز، تضع العلف في مذاود متفرقة ..

- هل عادت أختك من المورد ؟
- لا أدري لم أرها منذ خرجت للورود.
- اخرجي ابحثي عنها ...اسألي رفيقاتها لعلها رافقتهن إلى بيوتهن ، البنات يكبرن ويعقلن ويتحملن المسؤولية، وهي..كلما كبرت ازدادت جنونا... يفترض أنها تتأهب ليوم زفافها... بعد أيام قليلة، بنات آخر الزمان.

غير ان شقيقتها "مسعودة "لم تعد، ظلت تسأل عنها من فتاة إلى أخرى، وكلهن يجمعن على أنهن تركنها لأطفال الكتاب يحيطون بها وهي جاثمة على الأرض تبكي، أما أطفال الكُتّاب فقد وجدت أحدهم أنكر أنه عيّرها وقال تركناها قرب البئر تبكي، بعد أن عيّرها زملاؤه بان العرباوي يتزوجها. وقد عاد الجميع وتركوها قرب البئر متكئة على قربتها. وهكذا عادت "مسعودة" خائبة بعد رحلة مضنية من بيت إلى آخر، وقد سمعت كل الجارات أن باكي أو فجرة الاسم الذي يطلقنه عليها إثر غمزة وبسمة ذات مغزى، مفقودة وأهلها يبحثون عنها.

وضعت سودة قصعة الطعام أمام الحاج الجفناوي، وهي تشعر أنها تحمل كثيب رمل فوق صدرها ،وقالت: باكي لم تعد يا الحاج لحد الساعة، كل اللقمة بسرعة وابحث عنها فإن قلبي يحدثني بشر مستطير.

- متى خرجت ؟
- قبل المغرب.
- ولم خرجت ؟
- لترد الماء من بئر السابلة.
- ليس عندنا من يرد الماء غيرها؟ وأين مسعودة ؟ كيف تتركينها ولم يبق على عرسها إلا أيام معدودة؟
- إن شاء اللّه خير يا الحاج ، كل اللقمة وندعو اللّه ان يكون في الأمر خير.
- لا مجال لأية لقمة الآن، لا يمكن أن نتوقع ما تفكر فيه المجنونة، قم يا عامر، رافقني إلى البئر، نتقصى آثار أقدامها.

لمّا كان الليل مظلما، آخر الشهر القمري، منتصف شهر مايو وآخر أيام الربيع، أخذ الحفناوي معه كمية من الجريد اليابس وعلبة ثقاب وخرج مهرولا يتبعه ابنه عامر. وصل الحفناوي قريبا من البئر ووقف مبهوتا أمام القربة المليئة والنائمة على الرمل وقد تسرب منها معظم ما كانت تقله من المياه العذبة..ثم أشعل الجريدة الجافة وأخذ يتفحص التراب من حول القربة، يستشيط غضبا أكثر فاكثر وهو يرى الأثر يتجه إلى الشرق ،الخطوات وافية واسعة، تغرف الرمل غرفا بكلتا قدميها.

تأكد الحاج الحفناوي ان ابنته باكي هربت إلى حيث قبيلة أولاد حامد، متحدّية أباها وسلطته، ومتمردة على قراره الحازم بتزويجها من العرباوي، وهي في طريقها إلى نجع الفتى الذي رغب فيها وأرسل في خطبتها بعدة طرق ملتوية، فيها شيء من التهديد الخفي الذي حاول أن يوحي به حكيمهم وشاعرهم الشيخ رابح.

وعوض أن يقدم الجبان على أن ينفذ تهديده، أوعز إلى الغِرّة الساذجة بأن تهرب من أبيها إلى الأجلاف الذين يشحتون قطعة كسرى يسدون بها رمقهم أي

جنون وأي نذالة أفظع من هذا؟ هكذا كان الحاج الحفناوي يفكر بينه وبين نفسه.

أمر عامر بالعودة،ودعوة عمه العيد و العرباوي وعمه الحاج علي ، والتسلح بما أمكن والاستعداد لمعركة محتملة، وواصل سيره يتتبع مواقع أقدام ابنته بين الكثبان، والغيطان. وكان يشعل كل مرة جريدة يتتبع على نور شعلتها جرة الفتاة، ويتمتم ويحوقل :

– اللّه يلعنها.. المجنونة.. لا حول ولا قوة إلا باللّه....واللّه لأقطعنّ رأسها...اللّه يلعنها إلى يوم الدين!!!!!!...

بعد أكثر من ساعة من السير بين الكثبان، وتتبع آثار أقدام الفتاة، وقد تأكّد لديه أنها اتجهت إلى ديار أولاد حامد، التحق به جمع من رجال قومه قبيلة الصواعدة، التي قسمتها دفاتر الحالة المدنية الجديدة إلى عائلتين: عائلة العرباوي وعائلة البغلي.

خمس رجال هم الحفناوي وأخوه العيد واخوال الفتاة، وأعمام العرباوي علي ولخضر، وشابان هما العرباوي وعامر، وكلهم يحملون الجريد المشتعل، تتحرك شعل بعنف بسبب نسيم الهواء، فتنطفئ مرة وتشتعل مرة أخرى، ومع أنهم لم يعودوا بحاجة إلى نور الشعل من أجل اقتفاء أثر الفتاة ، فلم يبق من موضع أنس في هذا الاتجاه إلا ربع اولاد حامد.

ومع ذلك فالسير في النور أفضل بكثير من السير في الظلام، في الكثبان والأحراش، بعض النباتات الشوكية كالحلفاء والحاذ خاصة، يمكن أن تؤذيهم فأقدامهم معظمها حافية، عدا الحاج الحفناوي الذي يقي قدميه بعفّان مصنوع من صوف الضأن وشعر الماعز قاعدته قطعة من الجلد.

القوم يجدّون السير، علي وهو أكبرهم سنًّا، يمتطي بغلا، بينما يسير الاخرون، هرولة وراء البغل، ومن حين لآخر تشعل النار في إحدى الجريدات الجافة التي يحملونها معهم لإنارة الطريق المظلمة.

آثار أقدام الفتاة الهاربة تظهر حينا وتختفي أحيانا، فهي لم تكن تسعى في طريق مستقيم إلى ديار أولا حامد إنما، تسعى يمينا أو شمالا، وربما انحرفت عن الطريق بعض الشيء، وربما تكون قد ضلت الطريق، لولا لطف اللّه ولو أن المسافة ليست بعيدة جدا. كانوا يفكرون أنه يمكن إدراكها قبل وصولها إلى ربع أولاد حامد، لذلك يحثون الخطى، ومن حين لآخر، ينخز عمّي علي البغل كي يشتدّ في السير، عسى أن يتفادوا الصدام مع أولاد حامد، فلا بد أنهم سيمانعون في تسليمها من باب الشهامة ، فهم يعلمون أن عقوبتها في حالة كهذه ، قد تصل إلى القتل، فقد استجارت بهم، والبدو أفضل من يجير المستجير.

ست ساعات وهم يسيرون بين الكثبان، وقد أوشك الليل أن ينقضي، فالليل في هذه الليالي يبدأ في التقلص بعد أن كان طويلا في الليالي السابقة، لا يزيد طول الليل عن إحدى عشرة ساعة، وقد خرجوا بعد العشاء بأكثر من ساعة، في البداية السير بطيئا من أجل اقتصاص الأثر، لتتبع خط سيرها، ما إن تأكدوا من وجهتها حتى اطمأنوا بعض الشيء على أنها لم تضل الطريق.

أخيرا شعشع نور الفجر، ولاحت البطاح والكثبان بلون رمادي شفاف، ارتقى الشاب عامر ربوة عالية، فظهرت له في الأفق البعيد خيام أولاد حامد سوداء قاتمة، ما لا يقل عن نصف ساعة من السير الحثيث ، حتى يصلوا مدخل الحيفان، وحينئذ يكون النهار قد طلع،وعم النور كل مكان، وتحركت الحيوانات.

الحركة حثيثة في نجع أولاد حامد، الأمر الذي يجعل الزائرين في هذا الوقت المبكر يتوجسون خيفة، الرجال يجرون في اتجاهات مختلفة ونداءات من هنا وهنالك، والنساء يخرجن من خيامهن. ويسعين جميعا في اتجاه خيمة واحدة.

وصل رجال قبيلة الصواعدة الحاج الحفناوي ونجله عامر وأخوه العيد والعرباوي ، وعماه علي ولخضر.وقف الجميع على ربوة عند مدخل النجع واخذ الحاج الحفناوي يصيح بصوت متهدج:

- يا أهل النجع.....يا أهل النجع..!!!!!!
- يا رجال أولاد حامد....إلينا بكباركم....!!!!

هكـذا صـاح الحـاج علـي بصـوت مبحـوح، ثـم قـال لأخيـه لمـا رأى اندفاعـه بانفعال شديد ننتظر قليلا..

– تمهل الجرة دخلت هنا.. ولا داعي للقلق...القوم معروفون لدينا باتزانهم، وعلاقتنا بهم طيبة لحد الان، لولا هذه الشقية التي لا شك ستعكر صـفوها، هـا هو أحدهم قادم، وهاهي جماعة من الرجال بعده بخطوات.

– السلام عليكم .

– صباح الخير

– وعليكم السلام صبحكم اللّه بـالخير، مرحبـا بكـم،لا شـك أن مـا جـاء بكـم خير، تفضلوا..

– لم نات للضيافة ، نعيد فتاة خرجت عن طوعنا إلى جادة الصواب، نستلمها منك في الحال، ثم يكون لنا معكم شان آخر.

هكذا أجاب الحاج الحفناوي بصوته المتهدج دائما يتخلله اللهاث .

– هي ابنتكم إذن...لم نتعرف عليها بعد، فقد وجـدناها عنـد مـدخل الحـي غائبة عن الوعي، مرميّة على الأرض، معفـر وجههـا بالرمـل، تنـزف مـن مواضـع عديدة في جسمها، وضعتها النساء على قطعة فليج قديمة وسحبنها إلى الخيمة، وهنّ يقمن بعلاجها،ولحدّ الآن لم يتعرفن عليها. وريثما تستعيد قواها وعافيتهـا نسلّمها لكم، وحتى نضمن سلامتها نطلب منكم استلامها على يد سـيدي لمـين بن سيدي ليمام أو الشيخ الحسين.

– ما الذي يهمكم من سلامتها... الفاجرة.. واللّه لقد أقسمت بأغلظ الأيمـان لأقطعنّ رأسها وأغسل عارها بدمها، حالما تقع بين يـديّ... أنـتم تـدّعون عـدم التعرّف عليها، بينما نحن نعرف لماذا هربت منّا ولماذا لجأت إليكم أنتم بالذات؟

– لا عليكم شرطنا لتسـليمها واضـح لا غبـار عليـه، ولـم نطلـب المسـتحيل، ويمكن لكم أن تتفضلوا ضيوفا عندنا حتـى نرسـل أحـد فرسـاننا لاسـتقدام أحـد الشيخين أو كلاهما. وحينها تكون ابنتكم قد تعافت تماما.

أحسّ الحاج الحفناوي كأن دلوا من الماء البارد قد سكب على أم رأسه، وسال على سائر جسده.

قال الشيخ علي بصوته المبحوح :

- الرجل لم يقل عيبا..كلنا نرضى بالشيخ الحسين وحكمه. وحتى سيدي لمين إن لم يكن الشيخ الحسين..وأنت تعرف أن البرّ بقسمك يا حفناوي،صعب علينا جميعا قبوله.

- لا بد أن أبرّ بقسمي سواء عليكم أقبلتموه ام لم تقبلوا.

- لعل اللّه يجعل في الأمر ما لم يكن في الحسبان.

جاء العم رابح من بعيد يمشي متثاقلا، وقد رافقه أحد شبان النجع يمسك لجام فرس، وهي تسير خلفه بخيلاء، قال العم رابح ملتفتا إلى الحاج الحفناوي .

- إن هذا الطفل مرغ رؤوسنا في التراب، ومع أننا كنّا نخشى أن يتهور، ونخترع الحيلة بعد الأخرى لنمنع تهوره لكننا أصبحنا نتمنى لو أنه تهور فعلا، فها قد حصل ما لم نتوقعه جميعا، لو مرّ بخاطرنا ما حصل لتركناه يتهور، أفضل من ان تقلب الموازين، وتسير الأمور على رأسها لقد انتهكت الفتاة الأعراف القبلية البدوية والقروية على السواء. ونقرّ لكم بجرمها الكبير، ومع ذلك فلا نسلمها إلا للطالب أو الشيخ، فإن قضى بقطع رأسها، يحق لك أن تقطعه على دوي الطبول وأنغام الزرنة.

- ها هو أحد شباننا يمتطي فرسا إلى الرباح ليدعو سيدي لمين، والشيخ الحسين، نقترح عليكم أن يرافقه أحد شبانكم، وننتظر قدومهما لتسلم الفتاة أو الحكم لها أو عليها.

- رافقه يا عرباوي على البغل، وحاولوا الإسراع إلينا قبل الظهر.

- من أجل ماذا ؟ انا متنازل عن ابنتك يا حاج، اقتلها كما تشاء أو زوجها للحامدي أنا لم أعد أرغب فيها وغير معنيّ بالمشكلة.

- اقعد فلن تتزوجها لا أنت ولا غيرك، فلا أحد يتزوج جثة هامدة، بمجرد ما يصل الشيخ سأقطع رأسها على مشهد من الجميع. قم يا عامر ورافق الرجل وقل له أقبل بسرعة حتى نستلم المصيبة التي يمسكها هؤلاء البدو عندهم.

كان الحاج الحفناوي يطحن الحصى من شدة الغيظ، وبينما كان رفاقه جالسين على الرمال الناعمة، كان يتحرك من مكان إلى مكان ويلهث، ويحوقل ويستغفر ويقول كلاما فيه سب وشتم وكلاما كثيرا غير مفهوم:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أهكذا الكلبة بنت الكلب تفعلها؟؟ أستغفر الله. لاحول ولا قوة إلا بالله!!!!الله يلعن أبو المليح في جد باباها الحلوفة تعملها بهذه الفظاعة..

- أبعد إبليس يا حاج حفناوي...صل على النبي ...الله يهديك...كل مصيبة لها حلّ، اهدأ قليلا فبالرزانة يباع الصوف...

هكذا كان الشيخ عليّ يحاول تهدئة الحاج الحفناوي، بصوته المبحوح...لكن الحاج الحفناوي يكاد ينفجر، بعد أن مضى الشابان في طريق القرية، وتركا الجماعة،جالسين على الأرض ماعدا الحفناوي الذي كان واقفا طول الوقت يتحرك من مكان إلى آخر، يومئ بيديه بعنف.

أما جماعة أولاد حامد فقد كانوا على بعد خطوات، يتحدثون عن عايش الذي أخفى نفسه عن الأنظار منذ علم بالمصيبة الكبرى التي حلت بنجع اولاد حامد، عمي رابح يحاول تهدئة الجماعة فالتوتر يعمّ الجميع.

لم يكن يخطر له ولا على بال أحد، أن تفاجئنا البنت المجنونة فجرة بما ينتهك جميع الأعراف التي تعوّدناها، وهي أن المرأة لا تفعل شيئا إنما تستسلم للواقع، وإنما الرجل هو الذي يأخذ حقه بشجاعته وحبه للمغامرة، وكان عايش سيفعلها بلا شك، غير أننا استطعنا أن نضلله لبعض الوقت، بأن زواجها لم يحن موعده بعد، كما انشغلنا ببداية احتفالات شاو الربيع، وجمع غلة البادية وتقسيمها.

طال انتظار القوم في الجانبين للموفوديْن، بينما كانت النساء يجتمعن في الخيمة بعد أن استيقظت فجرة ،من الإغماء، لا تزال منهوكة القوى، صدرها يهتز وينخفض، لا تكاد تنبس بكلمة،تسقيها عيشة بنقيع التمر، وتكمّد حدي جراحها بالماء المالح، وتضمدها بالخرق النظيفة، والعجائز يبتهلن إلى اللّه بالدعاء: يارب استر على بنياتنا ونساءنا.

لم يكن من الصعب على عيشة أن تتعرف عليها، فقد اجتمعت بها، في حفل ختان حفيد الشيخ الحسين، وكانت قد وعدتها بأن عشيقها عايش سينفذ وعده بالطريقة البطولية التي سمع عنها في حكايات عمي رابح، والقصائد الشعرية. وقد سمعت من فجرة إيماءة خفيفة بإصرارها على حبيبها عايش مهما كلف الأمر، لم تكن عيشة قد فهمت ساعتها البدعة الجديدة التي يمكن ان تبتدعها ، وتأييدها كلام المرأة المسترجلة (طمطم)،لكن عيشة لم تحمل تلميحها على محمل الجدّ.

- إنها فجرة بنت الحاج الحفناوي ....هربت من أجل أخي عايش الذي خذلها وقد انتظرته طويلا.. وقد نفذت وعيدها وابتدعت للعرب بدعة جديدة لم تكن في الحسبان.
- دولة آخر زمان ...المرأة تخطف الرجل لا العكس ..يا رب استرنا...

اقترب منتصف نهار الأحد ولم يعد الشابان مرفوقيْن بالشيخ الحسين أو من يتولى تسلم الفتاة المتمرّدة، قام عمارة اللباد والد الشاب العاشق المتخاذل عايش، وشاعر القبيلة عمي رابح بإحضار طبق من التمر، و ركوة من اللبن لضيوف القبيلة ريثما تفرغ النساء من تحضير الكسكس، من أجل إطعام الضيوف الذين ينأون بأنفسهم بعيدا عن الخيام وعن جماعة القبيلة. والوجوم الرهيب يعمهم جميعا.

**** ****** **** **** **** **** ****

*** **** ***** ****** ****

-XVI-

سودة، تصل إلى الباب ترسل نظرة إلى الشارع، ثم تعود، تقعد مقرفصة على ركبتيها، ثم تقف وتعود، إلى الباب من جديد، وتسأل ابنتها مسعودة، هل أنت متأكدة،انها كانت عند البئ، ماذا قالت البنات اللاتي كن معها في البئر...لكن الحقيقة تقف عارية، أمام عينيها كعفريت من الجن.

– يا رب قدر الخير، يا ربّ يا ربّ...يا سيدي عبد القادر...احضر في هذه الليلة المشؤومة.

يعود ابنها عليّ ولا علم له بشيء مما جرى، يطلب عشاءه، تنهره أمه، تتهمه بانه يبقى طفلا لا يأبه بشيء.

– نحن نعيش كارثة حقيقية وانت لا تبالي بشيء، اعطه الطاعون اللّه يعطيه مصيبة.

– ما هنالك ماذا جرى..

– المصيبة أختك...لا أثر لها في القرية.. ذهبت إلى ورد الماء ولم تعد.

– أنت تعرفين أن زفافها للعرباوي يوم الخميس وتعرفين انها ترفض العرباوي، ولابد أنها هربت إلى الشاب الذي يلعب القرابيلا في نجع أولاد حامد، وهذا أمر بديهي لا يحتاج إلى كثرة ذكاء لا تقلقي "باغام" ليست بعيدة من هنا لابد ان تصل إلى النجع قبل الفجر والطريق آمنة. غدا نحضرها من نجع أولاد حامد ويوم الخميس نزفها إلى العرباوي وتنتهي المشكلة.

تورطونها في زيجة غير مرغوب فيها، وحين تقع المصيبة تريدين إيقاعها على رؤوس الجميع، سأتناول اللقمة ثم ألتحق بهم وصباح الغد تكون في حجرك.

التهم الشاب علي عشاءه بسرعة ودخل غرفة السقيفة وصفق الباب خلفه وارتمى على أقرب بساط ونام.

أما الأم سودة فقد تركت ابنها يلتهم عشاءه، ويعبر عن تبرمه وسخطه من سلوك والدته التي تقيم الدنيا وتقعدها من أجل لا شيء، ثم دخلت الغرفة تحاول التمدد على الفراش من شدة ما أصابها من التعب، لكنها لا تستطيع الهجوع وكأنما تكدست عليها هموم الدنيا كلها ومشاكلها.

باتت على فراش من الشوك، وهي عاجزة لا تعرف ما تصنع، وقبعت تنتظر أن يعود إليها عامر بخبر العثورعلى الفتاة في الطريق حية أو ميتة.

لكن النوم قهرها بعد منتصف الليل، وهي تكاد تتفطر جوانحها من شدة القلق، والغيظ فهي كذلك لم تكن موافقة على خطبة ابنتها باكي من العرباوي. ولكنها سلطة الأب الحاج الحفناوي المعروف بتسلطه على البيت خاصة فلا رأي لأحد في أي شيء، بل تمتد سلطته إلى القرية أيضا في كثير من شؤونها بقوة النفوذ الاقتصادي والتجاري، فالمقدم العروسي كثيرا ما يستشيره قبل الرجوع إلى القايد وبيرو عرب الذي يمثل السلطة الفرنسية.

قامت عند الفجر مثقلة كأنما تحمل على كاهلها كثيبا من الرمال، وتوضأت وراحت تصلي وتصلي وتبتهل إلى المولى عز وجل بأن ينتهى هذا الأمر على خير. امسكت مسبحتها بين أصابعها وتنقلت إلى غرفة البنات، وكان مسمارا دق قلبها، حينما لمحت فراش ابنتها باكي خاويا، أيقظت ابنتها الصغرى مسعودة. وهي تومئ إليها بالمسبحة مشيرة إلى حلب العنزة وتحضير الشاي.

وما إن أشرقت شمس يوم الأحد حتى بدأت النساء والعجائز المسنات يقبلن على سودة يواسينها في مصابها الجلل: هروب فجرة.

فقد تسامعت القرية برمتها منذ ليل البارحة أن فجرة بنت الحاج الحفناوي اختفت عند بئر السابلة، ثم وقر إلى وعي الجميع أنها هربت إلى نجع أولاد حامد.

كانت سودة تبكي وتشهق من حين لآخر، ولا تستمع كثيرا إلى مواساة العجائز اللاتي لا يحمل كلامهن مواساة بقدر ما يحمل التشفي والشفقة أيضا.

- بنات هذا الزمان يا أخيتي أصبحن متمردات على عادات أمهاتهن ، والله نحن كنا كالمعزاة لا نعرف شيئا ولا نفكر في شيء إلا بما يملى علينا من الأب والأم. والكبار.
- هزونا نتهزوا حطونا نتحطّوا كالأشياء الجامدة...يا لطيف الدنيا تبدلت .
- دولة آخر زمان ...

بينما سودة تبكي، وتبكي إلى جانبها شقيقتها بسبب فداحة الفضيحة، والعجائز يحاولن التخفيف عليها،بان كل شيء مكتوب في حكم الله وان ابن آدم كالريشة في مهب الريح لا طاقة له إلا على الصبر، تدخل (طمطم)المرأة المسترجلة،وهي تهتف.

- والله فحلة بنت فحل. مْرَا وَعْلِيهَا الْكَلاَمْ...كانت أكثر رجولة من الحامدي الجبان..والله أقسم عليك ألا تبكي، أنت مخطئة، فجرة تريد رفع الغبن عن كل نساء الدنيا، بإمساكها بزمام أمرها بيدها وحسم مصيرها بجسدها الغض...بنتك فحلة يا سودة بنتك فحلة...ثم اطلقت زغرودة رنّانة مطوّلة:
- أوروروروروروروروروروري....
- أوروروروروري

استجابت لها إحدى الفتيات المتعاطفات مع فجرة من هنالك على احتشام، وما لبث أن امتلأ فناء البيت بالزغاريد...واللغط والهرج والمرج.

وها هي علجية أم العرباوي والتي يلقبنها بعلجية العوراء، لحَوَلٍ في إحدى عينيها، تدخل لمواساة زوجة أخيها في هذا المصاب فإذا بالحزن ينقلب إلى فرح....وما ان دخلت وحاولت الاحتجاج حتى تصدت لها (طمطم):

- ابحثي عن فتاة أخرى لابنك، انت من البداية تعرفين أنها كانت تعشق الحامدي وهو بدوره يعشقها، لكنها كانت أرجل منه. ثم أخذت تغني ودعت الفتيات أن يرافقنها في الأهزوجة:
- فجرة راجل مش مرا....بخسة لعلجية العورا...

- فجرة راجل مش مرا ...بخسة لعلجية العورا..

وفي هذه اللحظة وقف عامر يمتطي بغل عمه علي، ولما كان البيت مكتظا بالنساء، والصخب والضجيج يملأ الشارع والشوارع المجاورة، فقد طرق الباب طرقا عنيفا، خرجت إليه شقيقته مسعودة، والمرأة المسترجلة (طمطم) بدافع الفضول،طلب عامر حضور والدته سودة لطمأنتها على أن ابنتها وصلت بسلام إلى نجع أولاد حامد، وأن أولاد حامد رفضوا تسليمها إلا بحضور الطالب الحسين أو الشيخ سيدي لمين، وأخبرها بأنهما وصلا للتو من "باغام" وهما يذهبان إلى الطالب الحسين أو سيدي لمين.

- كيف حال أبيك؟

- إنه في هياج شديد وهو يقسم أن يقطع رأسها، لكن لا تخشي شيئا لن تتركه الجماعة يؤذيها، لاسيما وأن الطالب هو الذي سيستلمها.

- لا بدّ أن اذهب معكم ، أرافقكم لن أترك ابنتي في قبضة المجنون سيقتلها، أستلمها معكم واعود بها أو أزوجها للحامدي خير من الفضيحة والعار.

- لم يعد يقبلها إلا عايش الحامدي، فقد تنازل عنها العرباوي وأعرب عن عدم رغبته فيها. ومن غير شك أن ابنتك لم يعد أمامها إلا عايش أولاد حامد، هذا إن لم ينكص على عقبيه بسبب فعلتها الشنيعة .

وهكذا انصرف عامر تجاه المسجد حيث يسكن الشيخ الحسين بجواره، وكان ترك والدته سوده تحضر نفسها للذهاب إلى النجع البدوي لمراقبة ما يجري لابنتها باكي التي باتت تعرف عند الجميع باسمها المقرون بقصة حبها ومغامرتها المثيرة: فجرة.

خلا الشاب عامر بالشيخ حسين وحدثه عن الحادثة:هروب فجرة، بسبب إجبارها على الزواج من العرباوي وتعلقها بالشاب عايش وقسم الحاج الحفناوي أن يقطع رأسها، وعزمه ان يبرّ بقسمه، وما اشتراط شيوخ أولاد حامد وعلى

رأسهم الشيخ عمارة اللباد استقدام الشيخ إلا محاولة لضمان سلامتها. وطمأنه الشيخ الحسين أن كل شيء سيجري على ما يرام.

**** *** *** ***

********* ******** ********

-XVII-

وصل الوفد العائد من القرية، يتقدمه الشيخ الحسين، والشاب عامر رفقة والدته تمتطي البغل وهو يتبعها ممسكا بذناب الحيوان، أما الشيخ الحسين فكان يمتطي حمارا استعاره من أحد الفلاحين، والشاب عمار بن الشيخ علي يمتطي فرسا.

ترجل الشيخ حسين، واجتمع إليه كل من كان على أطراف النجع، يتقدمهم عمارة اللباد والد عايش، والحاج الحفناوي الذي لا يزال كالح الوجه ، يغلي صدره من شدة الغيظ، بسبب الفضيحة، التي لم تكن تخطر له على بال.

- لقد علمت كل شيء، احضروا الفتاة ووالدها، والشاب الذي خطبها، والشاب الذي رغبت فيه، وينبغي أن يحضر أكبر عدد من رجال ونساء النجع، حتى يشهد الجميع على هذا الحدث الذي لم يكن له نظير فيما عشنا وفيها سمعنا من أخبار أسلافنا، ما ذا تريد يا حفناوي؟

- لقد أقسمت باللّه يا نعم سيدي أن أقطع رأسها لقد لطخت شرفي في التراب.

- انت على حق يا حفناوي، هي مخطئة خطأ كبيرا وعليه لا بد أن تبرّ بقسمك.

أمّا الحاضرون فقد اندهشوا لحكم الشيخ الذي كان يفترض أن يحميها من غضب أبيها، أما سودة امّ فجرة، فقد صاحت صيحة كبرى اهتزّ لها الجميع.

- يا شوووووووومي عن بنتي!!!!!!!!!!!!.

اجتمع كل من في النجع، النساء في جانب والرجال والشباب وحتى الأطفال في ناحية مقابلة، ينتظرون الشيخ عمارة أن يحضر فجرة.

التحق الشبان بعايش ليبلغوه بحضور الشيخ الحسين، وحكمه بقطع رأس فجره بسبب قسم الحاج الحفناوي، وكان رجال النجع يأملون أن يكون الشيخ منقذا للشابّة المتمردة.

بعد وقت قصير جاء الشبان مرفوقين بعايش الذي كان في أسوأ أحواله، كانوا يحاولون التهوين عليه، بينما كان يبكي بكاء مرًّا ويضرب رأسه بجمع كفه ويقول :

- أنا الجبان.. أنا الجبان...لم أسع لإنقاذها...تركتها تتخبط بين الأمل واليأس حتى يئست تماما من رجولتي، وهي التي لعبت دور الرجل..

رفض عايش في البداية أن ينساق مع الجموع الغفيرة التي تحضر القصاص من فجرة، لكن رفاقه أصرّوا عليه بأن الشيخ حسين نفسه طلب حضوره.

من بعيد مجموعة من النساء، على رأسهن حدّي زوجة عمارة ووالدة عايش، وشقيقته عيشة، يجرجرن فجرة متبرقعات بالأسود، يُحطن بها من كل جانب، ويرسلن البكاء والعويل، بينما هي تلوذ بالصمت المطبق.

- سكوت !!!سكوت!!! بسم اللّه الرحمن الرحيم.

بعد ان هتف الشيخ الحسين بطلب الهدوء من الحاضرين، الصمت الرهيب يعمّ المكان، على الرغم من الجموع الغفيرة من الناس،ومعظمهم من قبيلة اولاد حامد، لا تكاد تسمع إلا صوت سودة أم الفتاة المذنبة في غمغمة مكتومة.

- أين الفتاة المتمردة على سلطة أبيها؟؟

أدخلت الفتاة وسط الجموع تجرها عيشة، وعمي العيد، كانت منهوكة القوى تتحرك ببطء شديد كأنما تجرّ رجليها جرا، لا تزال آلام حادة في مواضع عديدة من جسدها الغض بسبب ما أصابها الليلة البارحة من هول الطريق، قلبها يخفق بعنف، تكاد تسقط على الأرض لولا إمساكها من الجانبين، لهاثها يكاد يسمع من بعيد.

سأل الشيخ بصوت عال ثم اقترب منها حتى كاد يضع فمه في اذنها:

- ما اسمك يا فتاة؟؟

وقبل ان تجيب بصوت خافت مبحوح:

- فجرة.....

همس في اذنها في غفلة من الحاضرين :

-لا تخافي ..اهدئي!!!

- أين والد الفتاة الذي أقسم ان يقطع رأسها؟ تعال لتبرّ بقسمك..

دخل الحاج الحفناوي وسط الجموع وكأنما دلو من الماء البارد قد صبّ على أمّ رأسه، إلى أخمص قدميه، تقدم بخطى ثقيلة كأنما قدماه تجران كتلا حديدية. اقترب بإشارة من الشيخ. الفتاة تنظر بنظرة غائرة أمرها الشيخ أن تطأطئ رأسها، كان شعرها الفاحم يلمس التراب، سدله الشيخ خصلة واحدة من خلف قفاها، و في دهشة من الحاضرين أخرج مقصا لامعا وقدمه للحاج الحفناوي قائلا:

- خذ، برّ بقسمك واقطع رأسها.. رأس المرأة شعرها!!!!!!!

أخذ الحاج الحفناوي المقصّ وقصّ بحركة واحدة ، الخصلة الكبيرة المتدلّية على الأرض واجهش بالبكاء واختفى بين الجموع. بينما رفعت سودة عقيرتها بالزغاريد واتبعتها حدي بزغرودة أخرى واختلطت زغاريد النسوة بالدموع. وكانت فجرة تبكي بحرقة شديدة شعرها الفاحم والناعم الذي تلوى أمام عينيها كأنه جثة ميت عزيز على قلبها فقدته للتوّ.

وبعد فترة هدوء، رفع الشيخ الحسين عقيرته:

- بسم اللّه الرحمن الرحيم. ((الحَمْدُ لِلّهِ الذِي حَلّلَ النّكَاحَ ،وَحَرَّمَ السِّفَاحَ وَجَعَلَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا))من يرغب في الزواج من الفتاة البكر العفيفة مباركة بنت الحاج الحفناوي المعروفة باسم :فجرة؟

سكت الجميع كانّ على رؤسهم الطير.وبقي الشيخ الحسين ينتظر برهة، وكان الشبان يدفعون عايش دفعا إلى الحلقة، لكن كان يتثاقل إلى الأرض غير مستعد للتقرب من الشيخ حسين، وهو يقول بصوت تخنقه العبرات:

- لست أهلا لها...!! لم أكن الرجل الذي تتمناه...لم أكن بالشجاعة الكافية...آه كنت جبانا، كنت جبانا!!!!.

تقدم منه والده عمارة وهو يدفعه دفعا وسط الجموع، ويقول:

- إن صح أنك كنت جبانا فلا تكن نـذلا. الفتـاة غـامرت بحياتهـا مـن أجلـك.. والحقيقة أنّنا كنا جميعا جبناء أمام لقمة العيش.

- من يريد ان يتقدم منافسا الشاب عايش؟ لا أحد؟ أين العرباوي.

- لقد عاد إلى القرية منذ الصباح وأعلن عدم رغبته في فجرة.

-هذا عقد أولي ابتدائي بمثابة الطلب والقبول، أما العقد الشرعي المحلل فهـو يوم العرس.

أشهدكم أيها الحاضـرون أننـي زوجـت مـوكلتي مباركـة بنـت الحـاج الحفنـاوي المدعوة فجرة، بموكلي عايش بن عمارة اللباد على سـنة اللّه ورسـوله والصـداق المعلوم والمعمول به. ما شرطك يا حفناوي؟

- أن يعود لابنتي اعتبارها فيكون حفل العرس في القرية.

- مقبول..مقبول!!!

- اللهم ألف بين قلبيهمـا كمـا ألفـت بـين آدم وحـواء، اللهـم ارزقهمـا الذريـة الصالحة .بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمد للّه رب العـالمين الـرحمن الـرحيم ملـك يوم الدين.....

سـبحان ربـك رب العـزة عمـا يصـفون وسـلام علـى المرسـلين والحمـد للّه رب العالمين.

تعالت الهتافات من هنا وهناك من كل أرجاء الساحة الواسعة:

- مبـروك مبـروك مبـروك ..بالإعمـار والإثمـار.. وامـتلأت السـاحة بالزغاريـد وأهازيج النساء اللاتي كنّ يُحطن بالعروسة ويتوجهن إلى الخيمة القريبة، خيمـة عمارة اللباد.

- سبقت ربي والصلاة على النبي من سبق اللّه يا محمد يا علي.

- أورورورورورورورورورري

-XVIII -

عاد الحاج الحفناوي إلى القرية في اليوم التالي بعد ان تمّت استضافته والشيخ حسين ووفد القرية،الذي جاء لاستلام فجرة، قام الشيخ عمارة بِنَحْرِ فصيلٍ من الإبل وقدم لضيوف أولاد حامد عشاء دسما على الطريقة البدوية، خبز الملة ولحم الإبل المنضج بالبخار، والمعالج بالأبزار والتوابل،وبعض خيرات البادية، كاللمص والشقارة والكمأة...وغيرها.

غير أن سودة رفضت ترك ابنتها في النجع، فقد وفّر عمارة اللباد وشيوخ النجع البدوي خيمة بكل ما يحتاج إليه ساكنوها، لسودة وابنتها فجرة. وكانت إلى جانب سودة، حدّي أم عايش العريس ،والعاشق المهزوم، وبضع نساء من عجائز النجع..

أوصى الحاج الحفناوي ابنه عامرا بتفقد امّه وشقيقته من حين لآخر في النجع ومراعاة مطالبهما، وخصوصا الغذائية منها،لاسيما ان النجع يشكو عادة من نقص المواد الغذائية، حتى وإن كنا في أواخر الربيع، وهكذا، بقيت فجره في النجع ولم يبق إلا الاستعداد للعرس الذي سيقام حفله الرئيسي في القرية حسب اشتراط الحاج الحفناوي، في محاولة منه لردّ اعتباره هو كرجل محافظ يخشى على شرفه من ألسنة المتقوّلين باعتباره والد الفتاة المتمرّدة.

وقد أرسل عماره ابنه الأصغر إلى السوق للبدء في تحضير العطرية والكسوة والهدايا التي تطلبها مناسبة العرس، وهي بسيطة لا تزيد عن الحرام أو الحولي وفستان وقميص ولثام وهو الخمار التقليدي لتغطية الرأس، وبعض المعطرات كالقرنفل والسواك والعفص والجوزة واللبان والقنطس والحناء والكحل والعطر السائل وبعض الأدوات البسيطة كالمرآة والمشط. والمكحلة والمرود.

غير أن فجرة استمهلتهم ألا يتسرعوا فهي ترفض ان تزف إلى عريسها في الوقت الحالي، لا بد أن يمضي وقت على هذه الحادثة فهي مريضة، وما من

موضع في جسدها إلا يتألّم بسبب ما قاسته في ليلة الهروب،وهي لذلك غير مستعدة للحدث.

كانوا ينتظرون أن تتعافى فجرة وتسترجع صحتها، من أجل أن يقام العرس للاحتفال بزواجها من عشيقها عايش الذي قلبت الدنيا رأسا على عقب من أجله، كانوا يسألونها إن كانت مستعدة للخميس القادم لكنها تؤجل الأمر، شهرا بعد شهر، وادركت العجائز حدي وسودة بعض ونساء النجع البدوي. أنها تعتزم أن تمهل الاخرين حتى يطول شعرها وتتمكن من أداء رقصة النخ أمام عايش متحدية الجميع. فكنّ ينصحنها بغسل شعرها بالماء الساخن وتعريضه للشمس وفرك فروته بزيت الزيتون. حتى يطول ويصير قابلا لأداء رقصة النخ في زمن وجيز.

أما عايش،فقد تضاءل أمام نفسه، وأمام أقرانه من شبان النجع، ولم يعد قادرا أن ينظر في عيني أحد منهم، وكان ساكتا طول الوقت، حتى إذا خلا إلى نفسه، تكلم متهما عمي رابح، بأنّه من ضلله، وتنبه إلى أنّه ورجال النجع تآمروا ضده حتى لا تسوء العلاقة بين أولاد حامد وبين القرية التي تعتبر مصدر رزق لهم في ساعات العسرة، أمّا الكرامة والعزة والأنفة والرجولة فلم تخطر لهم على بال، كم تذل لقمة العيش الرجال إلى الدرجة التي تجعل المرأة تستقوي، وتأخذ زمام أمرها بيدها!!

ماذا يقول لحبيبته حين يلقاها اللقاء الأول؟ هل يقول لها إنه جبن أم يقول لها إنه خدع ؟ أم يقول لها إنها هي التي كانت اكثر منه رجولة، فقامت بالدور الذي ينتظر منه هو، ولولا شهامته لرفضها. لكنه عملا بوصية والده، لم يرتض أن يجمع بين الجبن والنذالة.

تبدو له السماء سوداء مكفهرة رغم أن الشمس ساطعة، كما تبدو له الأرض شهباء شاحبة، هل يمكن للأرض الشاحبة ان تستغني عن السماء، لو كانت السماء شحيحة، منغلقة على جملة من الأحكام المجهولة أو الأقدار المقدرة الناقمة على الرجولة، ولا تعطي نورا ولا خيوطا للأمل في الإشراق، فالأرض

تصبح كئيبة حزينة، لكنها لا تفقد الأمل في ان تنقشع الغيوم، وتبتسم الوجوه الكالحة، وجه عمي رابح الذي لم يعد يراه إلا بوجه مكفهر كلون السماء المستعصي على الفهم، لماذا؟ كيف؟

ينهزم عمي رابح امام نظرة محدقة متساءلة، من الشاب العاشق الولهان المستعد للتضحية برأسه، فكيف تهون الكرامة من أجل حبات تمر يابسة او من أجل حبّة قمح؟ هل هؤلاء هم البدو الذين تتحدث عنهم الأساطير المروية،تكاد العينان تنطقان بدل اللسان المشلول، بطلب الصفح والتجاوز عن الخطيئة، لكن ليتها كانت خطيئة فالبشر يخطئون منذ بدء الخليقة، لكنها الخديعة التي تعيّن النذالة تعيينا قاطعا. آه يا عمي رابح !! أهذا أنت الذي تعلمنا أشعارك وحكاياتك أن الشرف أغلى ما يملك الإنسان، وأنّ الرقبة لا قيمة لها أمام القيم الجليلة..كيف تنكص على عقبيك يا عمي رابح؟؟ وتقدم درسا صعب الاستيعاب في الخسة و النذالة يمحو بحركة واحدة كل الدروس السابقة.

سقط قنطاص الخيمة، مالت الركائز لم يعد للنؤي أية جدوى،ولا حتى للحجير، غاصت الدبرة في غارب البعير:

لْيَا كَانْ مِ القُنْطَاسْ صَبّ القَاطِرْ*** مَا عَادْ لِلْوَنَّايْ وِينْ يْوَنِّي

تتآمر وتحشد معك شيوخ القبيلة ليأتي العرباوي البليد ويغتصب مني فجرة، وأنت تعلم أنها كرامتي، كبريائي، أنفتي الشامخة، وأخيرا... كل ما ملأ صدري من شعور بالشموخ بدا أنه فراغ وهواء، بدا أنه زيف في زيف، تمرغونها في الطين وتملّون مذبحها في الرمل بالبساطة التي تذبحون بها سحلية الشرشمان؟ هل نرمي كل ما تعلمناه على أيديكم في أقرب منحدر للقاذورات؟ أم نمسكه على هون ونمشي مطأطئين؟

إذا كنت لا تستطيع رفع عينيك في عيني، فكيف أتزوج فجرة، هل أدخل عليها بصفتي الرجل،أم بصفة أخرى أنتظر منكم أن تخترعوها، إذا لم يكن الزوج رجلا، فماذا عساه يكون؟ كيف أفتح عيني في عينيها، ماذا أقول لها؟ يا نكستي يا هواني بين الناس يا خجلي من الأرض التي أطأطئ لها، ومن نفسي

التي بين جنبي، يا سكّينا تغرز في كرامتي وتعبث بداخلها وتمزق أحشاءها. أم أقول لها إني زوجك بأعراف أخرى غريبة عنّي كل الغرابة، لم نحفظها في لوح نعم سيدي الذي يستطيع أن يجد الفتوى لئلا تموت فجرة بيد أبيها، وأموت أنا موتا غريبا يبقيني أتحرك كالشبح، أتنفس علتي وأعلك أوجاعي؟

لا تجزعنّ يا عايش، فالمعايير التي تعلمتها خاصة بالبادية، أمّا في الحاضرة، فهي تصير إلى معايير أخرى، يقال إن الرجل لن يكون رجلا، إنما سيكون كالمرأة يقعد في البيت ويطبخ الأكل. يقال إنه في المدن الكبرى تذهب المرأة إلى العمل وتدخل السوق وتشتري حاجات البيت الغذائية.

لعلك رأيت نساء الروامى كيف يلبسن البوطويل ويضعن البرنيطة على رؤوسهن ويدخلن السوق ويساومن الرجال في أسعار البضائع. كذلك يصير نساء الحواضر.

أما أنت فقد نقلتك فجرة بهذه الحركة المجنونة إلى الحاضرة، ألم تسمع ان الحاج الحفناوي اشترط أن يقام الحفل في القرية؟ أتظن أن ذلك من أجل إعادة الاعتبار لابنته فجرة فقط؟ إن الأمر أكثر من ذلك هل تظن أن الحاج الحفناوي يترك لك ابنته لترحل معك بين البوادي تاكل الترثوث والذانون حين يشتد الجوع.

هكذا كان الطالب الساسي يحدث الشاب عايش حين وجد لديه استعدادا لأن يستمع إلى من يفسر له الحال الملتبسة التي آل إليها؟ وبعد فترة صمت ارسل عايش زفرات حارة وقال:

– أما كنت سأغامر بحياتي لو أنني بادرت بخطفها وتهريبها،ماذا لو خسرت الرهان أمَا كنت سأموت؟ لكن الموت حينئذ ستكون له قيمة، لكنني خسرت الرهان حين جبنت وخسرت حياتي لكن لأعيش حياة غريبة عني ذات قيمة مختلفة تماما. ليس فيها شهامة ولا عزة ولا مروءة.

حياة فيها الأكل والشرب، والمأوى الدافئ الذي لا تذروه الرياح يمينا وشمالا كما تذرو رياح الربيع العاصفة خيامنا، هل يا ترى سأنعم بحب اجمل فتاة حلمت

بها، لكنها فجرة ساعتها لن تكون الأنثى تنتظر الرجل إنما الأنثى التي تختطف الرجل.

من الصعب على عايش أن يستوعب الوضع الجديد، يبدو للوهلة الأولى غير قابل للتصديق، غير أن الأيام كفيلة بتخفيف وقع الصدمة كما حاول ان يقنعه الطالب الساسي، أمّا عمي رابح فلم يجرؤ أن ينبس ببنت شفة لتبرير واقع الحال او تخفيف وطأته كما حاول آخرون.

كانت فجرة تعتقد ان عايش سيطلب رؤيتها، لكنه لم يفعل، ولما كانت هي تتلهف لرؤيته، فقد كانت تتساءل:

- لِمَ لَمْ يطلب زيارتي لاسيما بعد أن شاع أنني مريضة وبسبب المرض طلبت تأجيل العرس، لقد تم العقد الابتدائي على يد نعم سيدي في حفل طقوسي بهيج لم يشهد مثله نجع أولاد حامد، حين يختلط الحزن بالفرح بالدهشة بالخوف بالمشاعر المختلفة المتعددة، وكان من الطبيعي أن يتم العرس مباشرة في حفل بهيج يقام في الخبنة حيث يشهده جمع غفير من الناس، وحتى لو لم يتم الحفل فالعرف لم يعد يمنعه من رؤيتي بعد العقد؟

كانت تريد أن تعتذر له بعد أن وقر في ذهنها أنّها ارتكبت حماقة في حقه هو بالذات قبل أن تكون حماقة في حق أبيها مما أوحى إليها به حديث العجائز من حولها، يقلن إنَّ القرار لم يكن، في أي وقت من الأوقات، بيد المرأة، بل الرجل هو الذي يقرر وهو بطبيعة الحال لا يفرح لو كانت المرأة هي التي تتخذ القرار لصالحهما بدلا عنه. مهما كانت الظروف.ومع ذلك فلم يكن أمامها طريق آخر، لتجنب الكارثة. فأن تهرب إليه أفضل ألف مرة من ان تقع بين يدي العرباوي. كما كانت تريد ان تبلغة بنيتها في أن تنتظر شعرها حتى يصبح قابلا للنخ، كما أنّه لم يكن مستساغا أن يدخل بها حبيبها وفروة رأسها تشبه فروة الرجال، فالذي يزين المرأة شعرها الطويل الناعم لكن عايشا لم يسأل عنها ولم يطلب رؤيتها، وهو الأمر الذي يقض مضجعها، ويثقلها بمزيد من الهواجس.

مضت عدة شهور على فجرة وهي على تلك الحال، ولم يكن بوسعها إلا أن تتحمل وتنتظر أن يقرر الشيوخ موعد الحفل، وقد بدا شعرها ينسدل على كتفيها شيئا فشيئا وهي تدرك أنه ليس من السهل أن يعود كما كان من قبل ان يقرر الطالب الحسين جزّه تكفيرا عن يمين والدها الحاج الحفناوي.

وقد تعجب شيوخ النجع تصادف هذا الاتفاق غير المتوقع بين الحفناوي وابنته في المماطلة وتأجيل موعد العرس الذي يليه الزفاف والبناء، مع أن الشيخ عمارة اللباد، وبرغم قلة ذات اليد فقد تضامن معه كل رجال الحي من أجل اقتناء كل اللوازم التي تليق بزواج ابنهم الشاب العاشق من ابنة التاجر الثري، من حيث لا تحط من قدر البدو أمام جيرانهم من أهل القرية. و لا تشعرهم بالدونية. وقد كلفهم ذلك بيع رأسين من كرائم إبلهم.

كانوا كل مرة يرسلون إليه، طالبين موعدا لنقل العطرية إلى خيمة سودة وابنتها فجرة، لكن ذلك يقتضى حضور عائلة العروسة وجمع من نساء وأقارب الحاج الحفناوي من الرجال. لكنه كان يجد الذرائع للتأجيل.

***** ***** ***** *****

***** ****** *******

XIX

كان الشيح الحسين يمتطي الحمار الذي يهتز به في الطريق الذي يربط بين النجع البدوي والقرية ، عائدا من نجع اولاد حامد وكان إلى جانبه الحاج الحفناوي على البغل، كان الحفناوي غارقا في صمت رهيب وتفكير عميق ، كأنما تلقى هزيمة صاعقة زعزعت كيانه ومكانته في قريته وبين أفراد أسرته، كان الشيخ حسين من حين لآخر ينطق بعبارة وعظية أو شعائرية ملتفتا إلى الحفناوي محاولا لفت انتباهه:

-كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون!!

-المكتوب ليس منه هروب..وكل فرج كتب عليه اسم ناكحه منذ الأزل..يا حفناوي..هل يستطيع احد تحدي إرادة اللّه؟؟

-لا إله إلا اللّه يا شيخ حسين، ونعم باللّه!!!..

- الرجل يجلب ابنة لوالديه ، وأنت ابنتك جلبت لك ولدا فتيا شهما ..هل علمت عن الشاب البدوي ما يضيرك؟

- أبدا يا شيخ حسين..ما علمنا عنه إلا خيرا..

- الرجل العاقل يسعى لسعادة أولاده أكانوا ذكورا أم إناثا. ما علمنا عن القوم إلا انهم أهل الشرف، والفقر وحده لا يعيبهم، أرادوا التضحية برغبة ولدهم من أجل الحفاظ على العلاقة الودية بيننا وبينهم، ولم يكن يخطر ببالهم ما يمكن أن يحدث من مفاجئات.

- فعلا يا شيخ حسين انا أفكر فعلا في استقدامه إلى القرية، فيمكنه مساعدتي في أعمال كثيرة، توسعت أعمال التجارة،ولم يعد بإمكان عامر مساعدتي بأكثر مما يستطيع، وأنت تعلم البيت الصغير الذي تركه الحاج حمه، وكنا نستعمله للضيوف، لكنه الآن مهمل، أفكر الآن في ترميمه،وإسكان البنت

فيه.فتكون قريبة من أمها، ويكون الشاب معي حسب ما يرغب فيه من أعمال، إمّا في السعي أو في التجارة أو في الغيطان.

- كنت على يقين من أنّك نعم الرجل العاقل، فبارك اللّه فيك يا حاج حفناوي وأكثر من أمثالك!

وصل الجمع إلى القرية، وأمّا الشيخ حسين فقد توجه إلى المسجد حيث مسكنه قريب، واجتمع به نفر من الفضوليين من أهل القرية، يسألونه عما إن كان ما يقوله أهل القرية صحيحا، عن ابنة الحفناوي، فيقول لهم إنه لا يجوز في الإسلام تزويج الفتاة كرها لمن لا ترغب فيه، ومن ثم زوجناها على سنة اللّه ورسوله لمن رغبت فيه ولجأت إليه. وهكذا اطمأنت النفوس ورضيت بالواقعة باعتبارها حدثا لا غبار عليه يثار، لا حول الفتاة ولا حول والدها.

أخذ الحاج الحفناوي، بعد مدة في ترميم البيت الصغير، وقد فكر في دعوة الشاب عايش لمساعدته، فكان يقول لابنه عامر، حاول ان تتخذه صديقا وتخرجه من النجع، وحاول إحضاره إلى القرية للمساعدة في ترميم بيته. وفعلا نحج عامر بعد لأي شديد في إخراج عايش من عزلته، وبدأ يرافقه إلى الواحة مرة وإلى السعي مرة أخرى، بل أكثر من ذلك فقد رافقه إلى سوق التمور في أواخر الخريف لعرض المنتج المفضل " دقلة النور"، ومن ثم أخذ عايش يتأقلم للعيش في الحاضرة، وقد راقت له تربية المواشي أكثر من النشاطات الأخرى، ومع ذلك كان يساعد عامر كلما احتاج إلى المساعدة، إلى أن أعلن الحاج الحفناوي عن ضرورة إيفاء العقد الشرعي منتهاه وإقامة حفل الزفاف والبناء بعد أن اكتمل ترميم البيت من غرفتين إحداهما تصلح للنوم والجلوس والثانية لإعداد الطعام.

انخرط الشاب عايش في الدور الجديد، وقد وجد له مسوغا مقبولا من وجهة نظره، لما حذره والده من أنّ القرية سوف تأخذه وتنتزعه انتزاعا من النجع البدوي، فكان يقول: لم يعد للحياة البدوية أي معنى بعد أن غابت منها الشهامة والمروءة، فأحرى بي أن أغير جلدي، وأنتسب للقرية فعيشها أيسر بكثير من

عيش البادية مادامت القيم التي زخرت بها البادية قديما قد تلاشت ، وكثير من شباب النجع استصوبوا رأيه وفعلا حسب رأيهم فقد خذلته القبيلة، وأهدرت رجولته، وله بعد ذلك أن ينخلع منها وينتسب إلى قبيله أصهاره الجدد. لكنهم يتساءلون:هل يحتفظ أبناؤه بالنسب الحامدي البدوي أم ينتمون إلى عائلة الحفناوي التي تحمل اللقب الجديد: البغلي. لاشك في ان السؤال مشروع لاسيما وانه سيقيم في القرية وليس لقبيلة أولاد حامد لقب عائلي كالذي اصطنعته السلطات الفرنساوية للقرويين.

-الخطأ خطؤك أنت يا بني!! ما كان عليك ان تنظر إلى عالم غير عالمك، وتتطلع إلى النخلة التي لا تستطيع أن ترقاها، وتلبس ثوبا غير ثوبك، اللّه يملكك بالعقل، يا بني، مهما ذهبت إلى القرية فتظل ابني وأظل أمّك...الفتاة القروية لن تعوضك لقمتي الدافئة، ولمستي الحانية، مهما حاولت أن تنسى أمّك سيأتي يوم يشتد عليك الحال وتدرك أن لا احد يحسن السماع إلى شكواك مثل التي حملتك في بطنها تسعا وأرضعتك عصارة روحها اثنتين.

بنغمة جدّ حزينة هكذا كانت حدي تناجي ابنها عايش بعد أن علمت أنه اختار العيش في القرية واعتزال الحياة البدوية إلى الأبد.

-إذا سألتهم لماذا أهدرتم رجولتي، قالوا مذلة للقمة العيش تجبرنا على أن نطأطئ، ريثما تمرّ عاصفة السموم، إنها المبرر نفسه إلا أن الرياح ليست السموم التي لا تمرّ فنطأطئ لها إنما هي ريح الصبا نبذرها ونحصدها ونحرث الأرض التي تحضنها، تلك التي تجعلني أغير جلدي. وانتسب إلى أهل آخرين فمن وجد أهلا خيرا من اهله فليدع على أهله بخير !! ألم يقل الناس الغابرون هذا الكلام؟

وأخذ يحضّر لحفلة العرس، لا شك في أنها ستكون حفلة مقترنه بتاريخ هروب فجرة، فالنساء سواء في نجع أولاد حامد أم في قرية الخبنة وحتى في بعض القرى المجاورة أصبحن يؤرخن لكثير من الأحداث بليلة هروب فجرة، فقد تُسأل المرأة متى وضعت طفلها هذا، فتجيب قبل ليلة هروب فجرة بسبعة أيام،

أو متى سافر زوجك فتجيب بعد هروب فجرة بشهرين وهكذا، وإذا كان هروبها تاريخا مسجلا في ذاكرة النساء فكيف سيكون حفل زواجها بعد الهروب الذي أصرّ الحاج الحفناوي أن يكون في القرية وليس في نجع أولاد حامد.

صحيح أن عايش ينسلخ من قومه الذين تسببوا في إهانته ، لكنه قرر أيضا أن يستعين بهم في إحياء حفلة عرسه ، صحيح أن هذا يعد من خصال أهل الحواضر في اللؤم، ولكنه أصبح منهم أو على الأقل سيصبح منهم.

سيقطن بالقرية، ويكون الساعد الأيسر للحاج الحفناوي في واحته وفي مواشيه وحتى في تجارته إن أمكن جنبا لجنب مع ابنه عامر، وزوجا لابنته في ذات الوقت، أمّا نجع قومه فلا شك سيرحل عند وصول أوّل روّاد يخبر عن الغيث في موضع من مواضع البادية البعيدة.

تسامعت القرية والقرى المجاورة كالنخلة والعقلة، أواخر ربيع سنة 1939 ، بعرس الشاب البدوي بالفتاة القروية ابنة الرجل الثري التي هربت من خطيبها الذي اختاره أبوها إلى حبيبها الذي اختاره قلبها، سيكون العرس يوم الخميس، لكن الحفلات تبدا من ليل الثلاثاء..

من المتوقع أن يكون الحفل الذي يقام في القرية استجابة لشرط الحفناوي، متميزا، أمّا بقية الحفلات فتكون لا محالة بالبادية، ذلك أنّ للعرس حفلا ليلة الثلاثاء، وحفل العطرية عشية الأربعاء بالإضافة إلى حفلين أحدهما على نغم للزرنة والرقص بإطلاق البارود، عصر يوم الخميس وحفل الشّعر الرداسي ليلة الخميس أي قبيل وبعيد الزفاف. أما الحفل الكبير الذي اشترطه الحفناوي في القرية، فهو الذي يقام عصر الخميس. يلعب فيه الرجال بالقارابيلا ويعزفون على الزرنة ويطلقون البارود.

كثر القيل والقال في القرية، ما بال الحفناوي هل أصابه مس من الجن؟ التاجر الغني صاحب الجاه في القرية ليزوج ابنته الفاتنة الجمال لبدوي من نجع اولاد حامد. وتبدا الظنون في الانتشار، فمن قائل لابد ان الشاب البدوي قد خلا بها فخشي الحفناوي من الفضيحة، ومنهم من قال لأنّ للحفناوي إبلا في

الصحراء، وقد صاهر البدو حتى تكون إبله بمأمنٍ في الصحراء من الناهبين واختلفت الأقوال، لكنها اتفقت في استغراب الأمر والبحث له عن أسباب أو مسوغات. كما اتفقت على أن فجرة كانت بدعا من أمرها في هروبها إلى نجع أولاد حامد.

وعلم الجميع ان الفتاة الفاتنة ابنة الحفناوي، قلبت قوانين البادية، وعوض ان يختطفها البدوي كما يفعلون عادة، فقد جبن وانتظر أن تعمد هي إلى النجع وتختطفه، وتمت بتمثيلية من الحاج الحفناوي بالاشتراك مع الشيخ الحسين، وأصبح الحديث سواء بين الشباب او الشيوخ أو حتى الأطفال، كلما اجتمعت مجموعة الشباب: فها هم الجموعي الحلوف وحمه لمهنتش والرشيد المشنوق يتجاذبون أطراف الحديث قريبا من دكان الحاج العروسي:

-آه الحفناوي وما أدراك (طاحت بيه) في آخر العمر لم يبق في الدنيا رجال!!!

- آه يا رجال !! هاك الغزالة بنت الحفناوي ...ياخذها الحامدي .؟؟ من غرايب آخر الزمان..

- هي اللي خذاته يا أبله ما زلت لم تفهم شيئا!!!!

- كيف كيف!!! أخذ كل منهما الآخر.

- مش كيف كيف!!! .أحدهما آخذ والثاني مأخوذ.

- والأصل أن الآخذ يكون الرجل..

- سلم فمك...ولكن ابنة الحفناوي هي التي أخذت الحامدي وليس العكس.

- واللّه لا أعرف ما الذي أعجبها في البدوي الزليط..؟

- أعجبها "قناره" المائل..ههها

- ها ها ها ها ها...

- المشكلة فعلية يا راجل وليس قولية....

- ماذا تعني؟؟؟

- كل ما في الطبيعة من مخلوقات تقول إن الذكر هو الفاعل وليس الانثى ...

- وهنا بنت الحفناوي ....هي التي اختطفت البدوي من قبيلة أولاد حامد وليس هو الذي قام بالفعل ..هي الفاعلة.

- يبدو انك أنت الأبله... في الزواج لا بد من ناكح ومنكوح.. أنت تقلب الأمور على رأسها.....الناكح دائما رجل...

- معزىولو طارت ...بنت الحفناوي هي الناكحة...

-هاهاهاهاهاهاهاهاهاهاه...

- أنت معاند وقح !!!! ...تعني هي التي تركب عليه في الفراش.....

-هاهاهاهاهاهاهاهاهاهاه.

- هناك فرق كبير بين الركوب والنكاح، الركوب، الركوب دائما من طرف واحد أمّا النكاح فكلاهما ناكح ومنكوح..هههههه.

- الناكح هو الرجل دائما... حتى لو كان (طمطم) هههههههه

-هههاهها ها ها ها

***** ********** ******** *******

-XX-

كان حفل النخ في بادية "باغام" ليلة الثلاثاء إلى الأربعاء، صحيح أنّ أولاد حامد هم المشرفون وهم المسيرون وهم المنشطون، لكنّ الخيبة كانت تسحق قلوبهم، بسبب خروج عايش من بين ظهرانيهم، فقد كان الحفل بمثابة حفل تأبين، الكل مشدوه، عايش أخذته الفتاة القروية، وأخذه الحاج الحفناوي إلى صفه ربما قال بعضهم أخذه الحفناوي خادما عنده لابنته المدللة، عايش نفسه لم يكن سعيدا كما كان حين التقى بفجرة أول مرة، اللقاء التاريخي الذي عبر فيه كل منهما عن إعجابه بنظيره، في عرس أخيها عامر.

لم يكن شيوخ أولاد حامد، وعلى رأسهم عمارة اللباد وعمي رابح، يتوقعون أن تقاعسهم في نصرة ابنهم الفتى عايش، ينتهي إلى هذه الجنازة او هذا الحفل الذي يشبه الجنازة، حتى أغاني الموقف لم تكن كلماتها مثيرة للبهجة والسرور، إنما كانت مواسية، وتدعو إلى التسليم بالقضاء والقدر وحكم اللّه.

حُكْمُ الْقَادِرْ* يُحْكُمْ عَلَى الْمَخْلُوقْ حُكْمَهْ صَادِرْ
وَاحِدْ عَطَاهْ عَمَّارْ وَآخَرْ عَاقِرْ.
قَدْ مَا جَرَى جَرْيَهْ غَدَا تْمِرْمِيدَهْ
رَاهِي البَرَاكَةْ وَاشْ جَابْ النَّادِرْ.
لاَ يَنْفَعَكْ عَزَّامْ بِالتِّسْقِيدَةْ
دِيمَهْ بَاطِي ** حَتَّى الْقِرِيبَةْ تْجِي عَلِيهَا خَاطِي
لْيَا عَادْ خَلْقَ اللّهْ مُوشْ مْوَاتِي
لاَ يَنْفَعَكْ شِيْ شِخْ لاَ تْصِرْغِيدَةْ
وَاشْبَحْ أَيَّامْ النَّصَرْ كِيفْ تْوَاتِي
كُلْ يُومْ زَرْدَةْ وُالْفُلُوسْ جْدِيدَةْ

ومعروف عند أهل تلك المناطق أن العروس تخرج لرقصة النخ، عند البدو فقط، أمّا عند الحضر فلا تخرج مطلقا لا لرقصة النخ ولا للحفل الزرنة ورقصة البارود الرجولية.

لكن فجرة اخترقت جميع الأعراف الحضرية حين خرجت للنخ، وأدّت الرّقصة أمام عايش كانت متألقة بالحرام أو الحولي الأسود المزدان بأشرطة خضراء وحمراء، والخلال الفضي يلمع على صدرها، والشعر الفاحم لم يكن طويلا كما كان، لكنه يكفي لأداء الرقصة بمهارة وبراعة، استمتع الشباب وصغيرات البنات بالإيقاعات البدوية واستمتعت فجرة وعريسها عايش، لكن الكبار كانوا منهكين في سرحان مستمر كأنما يحضرون من أجل أداء واجب ثقيل لا أكثر. رنّت بعض الزغاريد من جانب النساء، لكنَّ أكثرها من نساء القرية اللاتي حضرن، باعتبار العرس عرسهنَّ. أما زغرودات كبيرات النجع ولا سيما حدّي والدة عايش ورفيقاتها، فلم تكن زغردة إلا في أصواتها الخارجية المسموعة أمّا في معانيها الداخلية المحسوسة فكانت تشبه الأنين.

كان عايش وهو يضرب على الطبل الضخم الذي يسمّونه في البادية (الفرح) وقد اقتربت منه فجرة، غمرته السعادة ونسي كل شيء، ونسي هزيمته أمامها، لم يذكر إلا شيئا واحدا، هو أنها غامرت بحياتها من أجله، ومن ثم تضاعف حبه وهيامه بها وتأجج الشوق في صدره، ولم يعد يعي والطبل يرنّ تحت يديه، وصوته يصدح بالأغنية التي صدح بها في أول لقاء في حلقة الرداسي ورقصة النخ:

أَضْوَى مِ لَّفْجَارْ ..خَدّكْ يَا فَجْرَةْ
أَضْوَى مِ لَّفْجَارْ ...خَدِّكْ يَا فَجْرَةْ
عْيُونِكْ جَدّي الرّيمْ ...فِي سْطُوحْ الْمَجْرَى..
يَا ضَاوْيَة ضَيَّْ فِينَارْ يَا سُودْ لَنْظَارْ
يَا شَايْدَةْ بِيْنْ لَجْيَالْ كِمَا شَادْ بَيَّْ السَّرَايَا..
زِينِكْ غَلَبْ كُلّ حَكَّارْ

جِي فُوقْ لِخْيَارْ.
وْمَا فَصَّلْ اللّهِ وْمَادَارْ.
فَصَّلْ الزِّينْ الُوقَايَا

أمّا في اليوم الثاني، فكانت حفلة باردة، بأتمّ ما في البرود من معنى، فأهل العرس هم أهل البادية، وقد استنكفوا أن يحضروا إلى القرية، فالعرس لم يكن كالأعراس المعتادة، هذه المرة العروس هي التي تأخذ العريس إلى دارها وليس العكس، لم يحضر منهم إلا عدد قليل من الشيوخ منهم عمارة اللباد والد عايش وعمّي رابح شاعر القبيلة، لم يستغرق الحفل اكثر من نصف ساعة، حملت القفة وأودعت لنساء القرية على رأسهنّ سودة، وغنين أغنيتهن المعهودة:

هَذَا النَّهَارْ لِمْبارَكْ وْلآخَرْ سِعِيدْ وُالِّلي حَضَرْ مُحَمَّدْ وْسِيدِي عْبِيدْ.

وفي الخارج كان جمع قليل العدد من الناس معظمهم من شباب القرية الذين كانوا يتغامزون، في التعريض باهل البادية، كيف يلبسون أسمالهم وكيف يتصرفون كأنما يعبرون عن خجل دفين.

يبدو نافخ الزرنة وضارب الطّبل كأنهما مسكين يتكئ على مسكين مثله، فلا أحد يعيرهما اهتماما، فقد أطلق عايش وعامر وجهين من البارود ثم مضيا لحال سبيلهما يتعاونان على حمل القفة وما تبع القفة من جهاز: الربعة، وهي الصندوق الصغير الذي يحوي أدوات العروسة، وكيس القمح والكبش الأملح الأقرن، وغير ذلك من هدايا، يحاول أهل البادية بطريقة مفتعلة أن يظهروا بمظهر المحترم الذي يعتدّ بنفسه، لكن تصرفاتهم تفضح ما أصابهم من إحباط بسبب هذا العرس المشؤوم، الذي نزل عليهم كالصاعقة، فاجأهم في مرابعهم واغتصب فتاهم اغتصابا. أما بقية الحاضرين فكلهم شبّان يضحكون ويلعبون ويتغامزون غير مبالين بالنافخ ولا بالطبّال.

وأخيرا جاء الحفل الكبير، وهو شرط الحاج الحفناوي، وقد اعدّ له الحفناوي العدة، رشت الساحة بالماء، حتى يخفّف من إثارة الغبار أثناء الرقص، والحقيقة أن الحفناوي أعدّ العدة لزف العروس في بيتها هي لا في بيت زوجها، والبدو من

قبيلة أولاد حامد، لم يجدوا أي قدرة على الاحتجاج مادام موقفهم أمام فتاهم عايش كان ضعيفا من البداية، كما أن عايش استساغ الأمر من البداية ، فقد بدأ يرافق عامر بن الحاج الحفناوي في بعض الأعمال. ويكتشف شيئا فشيئا أن الريف ليس به أوقات الفراغ التي تجعلهم يغرقون في التفكير كما هو الشأن في البادية، فأوقاتهم كلها عامرة بالانتقال من عمل إلى آخر.ومن ثم استراح من التفكير واستغرق في العمل.

دعا الحفناوي جميع أهل القرية وبعض أهل القرى المجاورة خصوصا الوجهاء والأعيان، ليتناولوا وجبة العشاء مباشرة بعد إبرام العقد النهائي، على يد الشيخ سيدي لمين هذه المرة.

وبينما كان الشيوخ، بعد صلاة العصر، ينتظرون حضور الشيخ سيدي لمين، كانت أنغام الزرنة تعزف خارج المسجد في الساحة الواسعة المقابلة لدكان الحاج العروسي،وقد جمعت الزرنة حشدا كبيرا من الناس، جاء شبان أولاد حامد، وجاءت جماعة البارود من القرى المجاورة وأخذ الوطيس يشتد شيئا فشيئا، تعالت النساء بالزغاريد، كان عايش في البداية يتولى القيادة، يراعي مطالب أصحاب البارود، ويوجّه رفاقه القدامى، إلى الاصطفاف، والتنسيق فيما بينهم، وهم يحرصون على تناسق الرقصة حتى في ملابسهم المميزة بالسروال الأسود العريض والسترة البيضاء والقنّار أو العمامة، لم يعد عايش يحرص على تمييل قناره، فهو مشغول بما هو أهم بكثير من الأناقة.

خرجت (طمطم) تلبس السروال الصحراوي الأسود والقدوارة والعمامة من كوكبة النساء، تحمل المجمرة الكبيرة على رأسها ينطلق منها دخان كثيف أبيض، وكانت ترقص وتفتح قبضة يدها وتوجّهها يمينا وشمالا، في إشارة واضحة إلى الخمسة التي تعتبر تعويذة سحرية لعين الحسود، ودخان البخور يطرد كذلك الأنفس السّيئة.

انطلقت عاصفتان من الزغاريد الصادحة، فقد وصل وفد الزاوية يرأسه الشيخ سيدي ليمام ويرافقه الشيخ الحسين والطالب عيسى وبعض المقاديم

كالحاج العروسي الذي يتولى دور الدائرة أو نائب القايد على القرية من قبل السلطات الاستعمارية، بل اكثر من ذلك تسامع الناس حتى في الرباح المجاورة أن أحد الأغنياء في الخبنة يزوج ابنته، وما من شك في أن الفرجة تكون رائعة فحضر أحد العسكريين الأوروبيين بلباس مدني يضع برنيطة ونظارة سوداء على عينيه اتقاء أشعة الشمس، ويحمل آلة التصوير.

وما إن هدأت عاصفة الزغاريد الأولى برهة من الزمن حتى انطلقت أخرى أشدّ منها، فقد تقدمت كوكبة من النساء المتبرقعات، يحطن بالعروسة الشابّة، ويضعن على رأسها رداء شفافا، يبدو أن فجرة أصرت على أن تخرج للمحفل، وترى عايش يؤدي رقصة الزقايري، ويمسك الآلة بتلك الحركة الأنيقة التي ألهبت قلبها منذ أن أخذت مظاهر الأنوثة تتفتق في جسدها البض.

وما إن لمح عايش موكب فجرة يتقدم حتى اختطف آلة من الآلات، وميّل "قناره" إلى اليسار كما كان يفعل دائما. وضع الفوهة على طرف القنار، ويده قرب الزناد ويده اليسرى على خصره من الجهة اليسرى، وبدأ يتحرك حركة أنيقة، مرة على القدم اليمنى وأخرى على اليسرى على إيقاع الطبل ونغمات الزرنة، وينظر يمينا وشمالا، إنّه يتصور في ذهنه كل ما يقوله الناس وراء ظهره سواء من سكان القرية أو حتى من أبناء قبيلته أولاد حامد، وكلما مرّت بخاطره تلك الهواجس، تألم قليلا وسرح بعيدا عن الحفل ورقصة الزقايري برهة من الزمن.

حين أطلق الوجه الأول بقدوم وفد الشيوخ والطلبة والأعيان أحسّ عايش كأنه لم يعد كما يرام، فقد ارتجت يده بالقارابيلا، لكنه استبعد كل هاجس، وعمر البندقية ووضع فيها أكثر من الكأس بقليل حتى يشعر نفسه بعودة الثقة من جديد. وراح يتمختر حينا ويدور أو يرقص أحيانا أخرى كأنما هو طاووس، في ملابس أجمل ما يمكن لشاب بدوي مثله أن يتخذ من مظاهر الأناقة. وراح ينتظر خروج الوفد من المسجد بعد اكتمال العقد النهائي والتوجه إلى المضافة لتناول العشاء كما هو مقرر.

وفجأة تعالت صيحات:

-مبروك ..مبروك.. مبروك..بالاعمار والثمار...

ثم انطلقت حناجر النساء بالزغاريد في الوقت الذي أطلق عايش الوجه المدوي الذي أفزع الجميع، لكن عايش لم يقم، فقد ظل جاثما على الأرض وقد التف حوله جمع غفير من الناس. يسألون إن كان قد أصابه مكروه.

شباب يجرون إلى المضافة لدعوة الحاج الحفناوي، وعماره، وجمع من الشيوخ الذين بيدهم الحل والربط، فقد تضرجت سترته البيضاء بالدماء الغزيرة الجارية من يده التي ظلت تنزف، بينما كان عايش يئن من شدة الألم، فقد انفجرت ماسورة القارابيلا، بسبب الشحنة الشديدة والكثيفة ومزقت شظاياها يده الممسكة بقوة.

انطلق صراخ فجرة من هناك، وكذلك صراخ والدتها سودة وحدي والدة عايش، وجاء الشيوخ وأمروا بربط يده عايش بعمامته، وبعد فترة زمنية لم تطل، وصلت سيارة الجيب، يقودها أحد العساكر وحملت عايش إلى المستشفى العسكري، مرفوقا بوالده عمارة وعامر شقيق عروسته، وصديقه الجديد القديم، وعاد الحفناوي ينهر النساء ينهاهن عن الصراخ والعويل. ومكثت النساء برهة من الزمن كأنَّ على رؤوسهنّ الطير..لا تكاد تسمع إلا غمغمات مبتورة بين الحين والآخر:

- إن شاء اللّه لا باس ...إن شاء اللّه لا باس...
- يا لطيف...عين الحسود عين حارة أعوذ باللّه..
- البارود غدّار...كل مرة نسمع عن حادث من هذا النوع...

وأخذت الجموع تتناقص من ساحة القرية، فلم يبق أخيرا إلا الحاج الحفناوي، وجماعة من شيوخ القرية وشيوخ النجع، ليس بينهم الشيخ عمارة اللباد بطبيعة الحال فقد رافق ابنه إلى المستشفى العسكري بالمدينة،وهو المستشفى الوحيد. أما في بيت النساء فكانت فجرة واجمة طول الوقت لا تنبس بكلمة، بينما سودة وحدّي تتمتمان:

-يا رب قدر الخير...يا رب قدر الخير...اللّه يهلك أولاد الحرام.....

وصل عمارة اللباد بعد منتصف الليل ومعه عامر، بينما لم يكن عايش معهما، لأن الأطباء أمروا باستبقائه في المستشفى، تحفظا خشية أن يحدث نزيف غير منتظر، بعد ان عالجوا الجرح وضمدوه الجرح النازف الذي أودى بثلاثة من أصابعه، البنصر والخنصر والوسطى، وقالوا إنه يمكن أن يخرج في اليوم التالي، على أنْ يعود للمستشفى يوما بعد يوم لاستبدال التضميد.

تعود الناس أن يتزين العريس ويحمل بعض الهدايا ويدخل على عروسته قبيل منتصف الليل، ويكون أحد اصدقائه الذين سبق لهم الزواج، ينتظره خارج الغرفة، وبعد جلسة حميمة يخرج العريس ليخبر"المزوار" أن كلّ شيء تمّ على ما يرام.

كانت فجرة أولى عروسة في تاريخ هذه المناطق الصحراوية، تدخل على عريسها في وضح النهار، ببعض الهدايا، من لبن وفاكهة، وتقبع والدتها أمام غرفة المستشفى تنتظر الخبر، وتجلس فجرة مع عريسها جلسة حميمة تبادلا فيها الابتسامات وعبارات المودة والمواساة وتبادلا عبارات الرضا بالقضاء:

-الحمد للّه على سلامتك يا حبيبي!!

- اللّه يسلمك يا نور عيني..

-الحمد للّه..

بعد فترة لم تطل تخرج من الغرفة، وتجد والدتها، ترمقها بابتسامة معبّرة عن الاطمئنان، فترسل سودة: زغرودة عالية تردّد صداها في أرجاء المستشفى العسكري:

-أوروروروروروروروروروروروروروري

فينهرها العسكري :

-tais-toi merde!!

***** ****** ****** ****

انتهت في الوادي 16ديسمبر2016

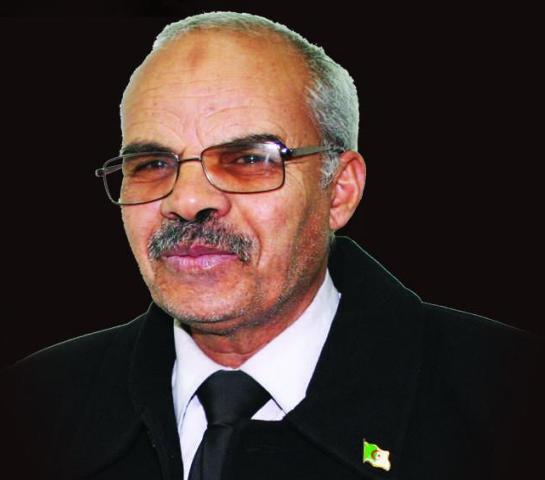

أحمد زغب

منذ أن ألقيت في روعها تلك الكلمة الصاعقة وهي تشعر أنّها عبارة عن شبح، تفكر في حبيبها كيف يكون حاله لو زفت فعلا إلى العرباوي؟ هل يتجاهل الأمر تماما ويبحث له عن فتاة جميلة أخرى يستعرض فحولته وأناقته أمامها ويبادلها الابتسام ويفرغ على رأسها زجاجة العطر؟ ترى هل رجال البادية مثل أبيها قلب جاف يشبه الكرناف لا يعرف النبض بالحب، ولا يعترف بالقلوب وميولها. أم ترى أن اناقته ووسامته تنبئ عن قلب مليء بالحب ميال إلى الوفاء والشهامة؟

- عايش يبلغك السلام، ويبلغك انه يعتزم أن يقوم بالعمل الذي يقوم به المحبون حين يصطدمون بتحجّر الأهل، غير أنّه يخشى أن ذلك العمل لا يلقى منك القبول والاستجابة، فيكون كمن دخل مفازة غير آمنة من دون سلاح. قدرنا أن ننتظر الرجال ان يبادروا كأننا حيوانات أليفة معدة للذبح، أو تساق إلى السوق... متى تأخذ النساء زمام المبادرة. ؟؟؟